مدرستا أهل القرآن واقرأ لتعليم القرآن الكريم
ولاية سمائل – وادي بني رواحة

مقرر المسابقة الرابعة عشر

تفسير القرآن الكريم
الجـــزء الرابع عشر

من كتاب
الإبريز في تفسير كتاب اللّه العزيز

يمكنكم الحصول على تفاصيل المسابقة وتنزيل نسخة إلكترونية من هذا المحتوى عبر موقع المدرستين على شبكة المعلومات العالمية

/https://areejquran.net

دعـــوة من القلب

لأننا نحبكم في اللّه فإننا نوجه إليكم دعوة من القلب لخدمة دين اللّه تعالى من خلال المشاركة في نظام السهم الوقفي والذي يمكنكم التعرف عليه من خلال الرابط المذكور أعلاه أو التواصل عبر الأرقام ٩٩٢٠٦٣١٥ – ٩٨٢١١٢١١ ـ ٩٢٥٠٨٦١٣

سائلين المولى عز وجل أن يجعل إنفاقكم صدقة جارية في ميزان حسناتكم.

تفسير الجزء الرابع عشر

تفسيرُ سورة الحجر

سورةُ الحجرِ مكّيّةٌ كلّها؛ بها تسعٌ وتسعُون آية، نزلت بعد سورةِ يوسفَ وقبل سورةِ الأنعام، تضمّنت أصول الدّعوةِ المكّيّةِ من تعريفٍ بالخالِق من خلالِ صفحةِ الكونِ البديعةِ؛ وتبصيرٍ بحقيقةِ الحياةِ الدّنيا؛ و إثباتٍ للبعثِ؛ وتبيينٍ للجزاءِ، وكان محورها العامّ قصصِ المكذّبينَ مع رُسلِهم وما لاقوهُ منهم مِن استهزاءٍ وردٍّ؛ وتخللّ ذلك تسلية للرّسول ﷺ وتثبيت له بمنهجِ مَن سبقه.

وقد تطرّقت السّورةُ إلى قصّة خلقِ آدم وذكرت قصّة إبراهيم ولُوط وشُعيب وصالح عليهم السّلام، وتعرّضت إلى موضوع خلقِ الجنّ وشأنِهم مع الوحي، ولذكرِ أصحابِ الحجرِ فيها -وهم ثمود- أخذتِ اسم "الحجر" وقد سمّاها بعضُ الحفّاظِ (سورةُ رُبَمَا) لانفرادِ هذا اللّفظِ في مطلعِ هذهِ السورةِ دون غيرِه من مواضع القرآن.

ولا ذُكر اسمها في أيّ موضعٍ من القرآنِ، وخلال السّورةِ وفي ختامها خاصّةً نوّهَ الله بعظمةِ القرآنِ وشأنه.

١. إمهال الكافرين والرد على المستهزئين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (٨)﴾

﴿الر﴾ الألف واللام والراء حروفٌ انتظمت بها آياتُ القرآنِ؛ أوردها الله في مطالِع بعضِ السّورِ تنبيهًا على إعجازِه الخلقَ في الإتيانِ بشيءٍ من القرآنِ ومادّتُه بينَ أيديهم؛ ولذلك يأتي ذكرُ الوحي بعدها غالبًا، ونُطْقُ النّبي الأمّيّ بأسماءِ الحروفِ دليلٌ على أنّ ثمّةَ مَن يُعلّمه وهو الله ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ آياتُ هذا الكتابِ هي آياتُ الله وهي القرآنُ البيّنُ المعجز بأسلُوبه وفصاحتِه، والآية مثل قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النّمل ١] وما بينهما من المغايرةِ تفنّنٌ، والإشارةُ بالبعيدِ إلى القريبِ فيهِ لفتةُ التّعظيمِ؛ وكونُها لأمرٍ معقولٍ تنزيلٌ له منزلةَ مشاهدٍ محسوسٍ، وسمّاهُ كتابًا مجازًا بالنّظرِ إلى ما سيكونُ لأنّه لم يكتمل؛ وإنّ تحقّق كونه كتابًا مجموعًا غيبٌ أخْبَرَ به فوقع ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا

مُسْلِمِينَ﴾ إخبارٌ سيقَ تهديدًا للكفّارِ كحدِّ قولِ العربِ في التّحذيرِ: لعلّك ستندمُ على ما فعلتَ؛ معناه: قد يتمنّى الكفّارُ بشدّةٍ أن يكونوا مسلمينَ، وذلك إذا رأوا غلبة المسلمين أو حينَ يعاينون الموتَ أو في الآخرةِ إذا رأوا أهوالَها، و"رُبَمَا" بتشديدِ الباءِ وتخفيفها قراءتان؛ كلمةٌ مركّبةٌ تستعملُ في توقّعِ أمرٍ غير ثابتٍ، وهي في الآيةِ لاستبعاد أمرٍ لا محالةَ سيقعُ حملاً للمهدّدِ به للتّفكّرِ في عاقبته لو وقعَ وهو لا منجى له منه، وذكرُهُ الكفّار دون المنافقينَ لا دليل فيه لما قاله بعض المفسرين: من أن هذا القول يصدُرُ منهم لمّا يرون العصاة يخرُجون من النّارِ، لتظافُرِ الأدلّةِ القطعيّةِ على أنّ مَن يدخل النّار لن يخرُج منها مشركا كان أو صاحب كبيرة ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ دعهم أيّها الرّسُول ﷺ على حالِهم يتمتّعُون بملذّاتِ الدّنيا كما تتمتّعُ الأنعام؛ وينشغلُون بطولِ الأملِ في مغرياتها عن التّفكّرِ فيما خُلقُوا مِن أجله، والأمرُ هنا جارٍ مجرى تهديدِهم لإعلامِه ﷺ بقلّةِ انتفاعِهم بالنّصحِ لئلاّ يغتمَّ بهم؛ كقوله ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدّثر ١١] وليس المرادُ لا تُكلّمهم تيئيسا منهم، وقدّم الأكل تعريضًا بتشبيههم بالأنعامِ في أظهرِ صفةٍ لها ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وسيرونَ حقيقةَ ما ينتظرُهم من الجزاء بأمّ أعينهم، والآيةُ تضمّنت وعيدًا شديدًا في أفتكِ الأمراضِ بالمصيرِ وهو طول الأملِ وراء الدّنيا.

وكان الكفّار يستعجلونه ﷺ بالعذابِ فكان الله يعلّمُه: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ أيُّ قريةٍ أهلكنا أهلها من قبلُ بسببِ عصيانِهم؛ قد حدّدنا لها أجلاً معلُومًا ينقضي فيهِ عُمر تمتّعهم ويأتيها عذابُ الاستئصالِ يمحقُها، والمهلكُ أهلُها وجعل ذلك للقريةِ مجازًا، والكتابُ هنا الميعادُ المعلوم شُبّه به من جهةِ ثبوتِ ما فيهِ على ما هو عليهِ ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ لا نُقدّمُ لجماعةٍ أجل هلاكِها ضجرًا من قبيحِ انحرافِها؛ ولا نُؤخّرُها عن ساعةِ هلاكها لحظةً شفقةً عليها، وهذا الإخبار إنذارٌ للقرى الغافلةِ وإيقاظٌ لها، وزيدتِ السّينُ والتّاءُ في "يستأخرُون" تأكيدًا لنفي التّأخيرِ إذ هو المتبادر ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ وقال كفّارُ مكّةَ للرّسُولِ ﷺ ينادُونه على سبيلِ الاستهزاءِ والازدراء: يا مَن تزعُم أنّ القرآن نزل عليك، والنّداءُ "يا أيّها" للتشهير بالمنادى بالصّفةِ التي ستُذكرُ، والذّكر مِن أسماءِ القرآن وهو مِن أقربِ مترادفاتِه مِن جهةِ معنى تجدّد قراءته وتلاوته ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ نؤكّدُ لك بأنّك متضرّرٌ عقليًّا، وأكّدُوا كلامهم إمعانًا في احتقارِه ولزًّا له إلى تركِ دعوته، وأمثالُ هذا الوصفِ من الأقوامِ لرُسلهم في القرآنِ أغلبُه تشبيهٌ لحالِ المتغيّرِ عن قومه في طبيعتِه بحالِ الممسوس مِن الجنّ ﴿لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ هلاّ جئتنا بجماعةٍ مِن الملائكةِ معكَ تؤيّدُك فيما تدعو إليه إن كنتَ حقًّا مِن أهلِ الصّدقِ فيما تقول، و"لومَا" حرفُ تحضيضٍ مثل "لولا"، وقولُهم "إن كنت من الصّادقينَ" أشدّ وقعًا في نفسِ المخاطبِ من: إن كنتَ صادقًا. يردُّ الله عليهم مِن عليائه: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لا نأتي بالملائكةِ على النّاسِ إلاّ لأجلِ الأمرِ الحقّ كتبليغِ الوحي وإنفاذِ وعيدِ الله فيهم؛ والمرادُ بالحقّ هاهنا العذابُ لأنّه تمّم بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ وحينها لا

يُمهلُ أحدٌ منهم ليتوبَ ويستغفر، والمرادُ تحذيرُهم مِن سؤالِ ذلك فهو ليس في صالِحهم، ولذلكَ لم يجعل نفي نزولِ الملائكةِ مجرّدًا بدون علة؛ تفعيلاً للأسلوبِ الحكيمِ؛ وهو العدول عمّا يقتضيهِ السّؤالُ من جوابٍ إلى ما فيهِ فائدةٌ أولى للسّائل.

٢. حفظ الله للقرآن الكريم، وبيان تعنت المشركين

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)﴾

وبعد استنقاصِ الكفّارِ مِن قدرِ الرّسُول ﷺ يأتي تأييدُ الله له ردًّا عليهم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ إنّ منزل القرآنِ على الرّسُول هو الله وحدهُ؛ فليس كلامًا ادّعاهُ مِن عنده كما يدّعي ناقص العقلِ، وأكّد الجملة بإنّ وتشديدِ "نزّل" و إقحامِ ضميرِ العظمةِ إزالةً لغلواءِ كبريائهم ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ و إنّنا متكفّلون بحفظِ آياته وسورِه من أيّ تبديلٍ أو نسيانٍ أو اندثارٍ، وإعلانُ صاحبِ كتابٍ حفظ كتابه بحروفِه وتراكيبه مع تربّص المتحدّينَ له إعجازٌ يؤذنُ بعلوّ مقامِ مُنزله ومفصّلِ مضمونه[1]، وكفى بهذا المقطعِ شاهدًا على صحّةِ مضمونِ القرآنِ؛ فصيغتُه المحكمةُ مبنًى ومعنى لا تكونُ إلاّ مِن كلامِ الله؛ إضافةً إلى اكتسابِ صحّتِه مِن واقعِ حالِ بقاءِ القرآنِ محفوظًا ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ واعلم يا محمّد ﷺ بأنّنا قد بعثنا مِن قبلكَ رُسلاً إلى أقوامٍ عديدةٍ، والشّيع جمعُ شيعةٍ وهي الفرقة، و"الأوّلين" في الآيةِ بمعنى السّابقين ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ و أيّما قومٍ يأتيهم رسُولُهم بالوحيِ مِن الله إلاّ غدوا يسخرُون من شخصِه وصفاتِه، وفي هذا تسليةٌ لقلبِه ﷺ ممّا كان يلقاهُ من قومه، وعبّر عنِ الإتيانِ والاستهزاءِ بالمضارعِ لإفادةِ التّجدّدِ ولاستحضارِ تلك الحالِ وكأنّها تقع؛ فالمشاهدُ أقوى مِن المخبرِ عنه، وقدّم "به" للقصرِ فكأنّهم لكثرةِ استهزائهم أُنزِلُوا منزلةَ مَن ليس له عملٌ إلاّ الاستهزاء ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ وعلى نحوِ ما كان الاستهزاءُ متمكّنًا في قلوبِ تلك الأقوامِ كان متمكّنًا في قلوبِ قومِكَ أيضًا، وجاء فعلُ السّلك لله تلويحًا بأنّه عقوبةٌ منه، وذكرهم بعنوانِ الإجرامِ لبيانِ سببِ استبقائهم على حالِ مَن سبقهم، أو هاءُ "نسلُكه" تعودُ للذّكرِ بمعنى نوصلُ معانيهِ إلى قلوبهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وليس لقومك أيّها الرّسُول ﷺ استعدادٌ لأن يُؤمنوا بهذا القرآنِ مع

---

[1] ومن لطيف المقارنة ما لاحظه أهل التّفسيرِ في شأنِ التّوراةِ وما أحدث الأحبارُ والرّهبان من تغييرٍ فيها إذ وكّلُوا بحفظِها في قوله: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة ٤٤].

إدراكِهم معانيه ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ وقد جرت سنّة الله في البشريّةِ بإضلالِ المعاندين المكابرينَ وأخذِهم بالعذابِ إذا حلّت ساعةُ أخذِهم، وتضمّن هذا تهديدًا للذين كفرُوا بمحمّدٍ ﷺ.

ثمّ يبيّنُ الله بأنّ هؤلاءِ الكفّار لا ينتفعون بالآياتِ والمعجزاتِ مهما بيّنها لهم: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ولو أنّنا على سبيلِ الافتراضِ فتحنا للكفّارِ مدخلاً في السّماءِ ويسّرنا لهم سُبل الصّعودِ إليه ثمّ غدوا يصعدُون يُشاهدُون ملكوت اللهِ فيها وما غاب عنهم كعالمِ الملائكةِ، و"عليهم" في الآيةِ بمعنى: لهم، و"ظلُّوا" يجوزُ حملُها على قضاء النّهارِ تنويهًا بوضوحِ ما يرونَ، والعروج الصّعود بانحرافٍ نحو السّماء ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ لقالُوا بعد ذلك كلّه لشدّةِ عنادِهم وتكبّرِهم: ليس ذلك حقًّا بل خُدعت أبصارُنا وسُحرنا، ونُكتةُ الحصرِ في الآيةِ نفيُهم أن يكون المخدوع شيئًا آخر غير أبصارِهم أي عقولُهم على زعمهم سليمةٌ، وسكّرَ بتشديدِ الكافِ أو تخفيفه بمعنى سدّ ومنع؛ ومنهُ اشتقّ السُّكْرُ لانسدادِ العقلِ عن الوعي، ولم يكتفُوا بقولِهم "نحنُ مسحورُون" لإفادةِ أنّ السّحر تمكّن فيهم وصار كأنّه من خصائصِهم، ومن المفسرين المعاصرين من قال بأن في الآية الكريمة إعجازا علميا؛ لأن الله أولاً ذكر الأبواب للسماء، وقد كان الناس يظنون أن السماء فراغ إلا أنه ثبت علميا أنها بنيان محكم تملأه المادة والطاقة، يتعذر دخوله إلا عن طريق أبواب، وثانيا: ذكر العروج (يعرجون) والعروج هو الصعود بانحراف في خط منعطف منحنٍ، وقد ثبت علميا أن حركة الأجسام في الكون لا يمكن أن تكون في خطوط مستقيمة، بل لا بد لها من الانحناء نظرا لانتشار المادة والطاقة في كل الكون، وحتى الأشعة الكونية على تناهي دقائقها في الصغر لا تتحرك في الفضاء إلا في خطوط متعرجة، وقد ثبت أن كل جرم متحرك في السماء مهما كانت كتلته محكوم بكل من القوى الدافعة له وبالجاذبية مما يضطره إلى التحرك في خط منحنٍ، وثالثا: ذكر أنهم يقولون سكّرت أبصارنا أو أصابنا شيء من السحر؛ وذلك لأن الفضاء مملوء بالظلمة فلا يستطيعون رؤية شيء، وهذا ما حصل لرائد الفضاء الأمريكي في منتصف الستين من القرن العشرين الميلادي عندما صعد إلى الفضاء ورأى تلك الظلمة التي تستر المكان فقال: (لقد فقدت بصري أو كأن شيئا من السحر قد اعتراني)[٢]

٣. دلائل قدرة الله وعلمه وسلطانه

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا

[٢] ــ موقع الدكتور: زغلول النجار. www.elnaggarzr.com

نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)﴾

وبعدَ تقريرِ عدمِ انتفاعِ الكفّارِ بالآياتِ عرضَ الله بعضًا مِن دلائلِ قدرتِه في بدائع صنعِه يدعو إلى تأمّلها؛ إشارةً إلى كفايتها لمن أرادَ معرفةَ الله والإذعان له؛ ومن بديعِ الانتقال أن بدأَ بما ختم بهِ مِن ذكرِ السّماء ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ ولقد أبدعنا فوقكم في السّماءِ منازلَ للكواكب وجمّلنا مظهرها بالنّجومِ البديعةِ الكثيرةِ لمن أرادَ تأمّلها، وأكّد الكلام شدًّا للانتباهِ إليهِ لأنّه من المعلوماتِ التي من شأنِها أن يُغفل عنها، والبروج جمعُ برجٍ وهو البناءُ الظّاهر؛ ويراد بها منازل الكواكب، وقيل: المراد بها الكواكب نفسها . ويستطردُ الكلامُ في شأنِ شياطينِ الجنّ مع الوحيِ مناسبةً لما سبق من ذكرِه: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ ولقد جعل الله للشّياطينِ حدّ التّنقّلِ في الأرضِ، وحَفِظَ حدود السّماءِ التي فيها عالمُ الوحيِ والملائكةِ من تنقّلات كلّ شيطانٍ ذميمٍ، والرّجيم استعارةٌ للمبعدِ المهان؛ وصيغتُه للمبالغةِ، وهذا الرّجم غير القذفِ بالشّهبِ لوجودِ الاستثناء ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ إلاّ الذي حاول اختراق حدودِه ليسمع من خبرِ أهلِ السّماءِ؛ فهو وإن استرقَ خبرًا لا يصلُ بهِ إلى الأرضِ إذ يلحقُ خلفهُ شهابٌ محرقٌ يقضي عليهِ، والاستراقُ تكلّفٌ في السّرقة، وجعلُه للسّمعِ بحُكم ما يؤول الخبرُ إليهِ حينَ تتلقّاهُ آذانُ مَن ينقلُ إليهم، و"مبينٌ" أي مضيءٌ يظهرُ، ولعلَّ الله جعل هذا مظهرًا كونيًّا لحفظِ الرّسالةِ الجديدةِ في سياقِ ذكرِ حفظِها بطريقة يفهمُها العرب البسطاءُ الذينَ شاع فيهم السّحرُ والكهانة؛ والله قادرٌ على حدِّ الشّياطين وحدِّ قوّتِهم ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ ولقد هيّأنا الأرضَ للإعمارِ والتّنقّلِ والأعمالِ ببسطِ سهولِها، وهذا بالنّظرِ إلى الجزءِ الظاهر للعيان فهو لا يُنافي كرويّتها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وهيّأنا في سطحها جبالاً عظيمةً تعملُ على ضبطِ حركتِها، والرّواسي نعتٌ لمنعوتٍ محذوفٍ وهو الجبالُ، مِن أرسى الشّيء إذا ثبّته ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ وأخرجنا من سهولِ الأرضِ الفسيحةِ المتنوّعةِ شتّى صنوف الزّروع والثّمارِ؛ كلّ صنفٍ منها قد هيّأناهُ بميزانٍ ودقّةٍ، فالله مثلاً لم يجعلِ ثمار النّخلةِ عظيمةً لعلوّها؛ وجعل التّمرة تبدأُ نضجها من أسفلها لئلاّ تنفكَّ عن أصلِها، ويسّر اكتمال نضجها في وقتٍ واحدٍ مع عدمِ سرعةِ فسادِها لكلفةِ جنيها؛ وهكذا ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ وجعلنا في الأرضِ أنواعًا مِن المطاعِم تقتاتُون بها وتعيشون بها، والمعايش: جمع معيشة، وهي: اسم لما يعاش به أي يحيا به من المطاعم والمشارب ؛ أي لو شاء لجعل نوعًا واحدًا بطبيعةٍ واحدةٍ، جعلنا كلَّ ذلك لكم ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ ولِمن لستُم برازقيهِ أنتُم كأولادكم وعيالكم وكذا أنعامكم وحيواناتكم، أو أرادَ بالرّزقِ الإطعام والإيواء فينصرفُ المعنى إلى مخلوقاتِ الله الكثيرةِ في هذه الأرضِ، أو "مَنْ" معطوفةٌ على معايشَ كأنّهُ قال: جعلنا لكم المعايش

وجعلنا لكم من لستم ترزقونه كالأولاد... ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ وأيُّ شيءٍ بينَ أيديكم تنتفعون بهِ ما هو إلا رزقٌ منّا وخزائنُ نوعِه عندنا، وفي الآيةِ حذفُ صفةٍ أي شيء نافع، كما فيها استعارةُ الخزائنِ لملكِ الله الواسعِ؛ وفي التّعبيرِ بها جمعًا (خزائن) تلميحٌ إلى أنّ كثرةَ مَن يرزُقه لا تعجزُه؛ كما أنّ كلّ ما ينتفعون به بيدِه متى شاء أعطاهُم مزيدًا منه تفضّلاً أو منعهم لحكمةٍ ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ ولا نعطي من خزائنِ الرّزقِ إلاَّ بقدرٍ يناسبُ المرزوقينَ وحالهم، وعلم ذلك القدرِ مفوّضٌ لله يجبُ الاستسلامُ له بعد الحركةِ والطّلبِ، ومعنى الإنزالِ التّصريفُ والتّسخير؛ عبّر بالتنزيل لأنّ شأن ذلك أن يدبّر في العوالِم العلويّةِ ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ والله هو الذي تكفّل بتسييرِ حركةِ الرّياحِ في كلّ حالٍ؛ ومن تلكم الأحوالِ حالُ تلقيحِ السّحابِ والنّباتِ، ولعلَّ المراد هنا الحال الأولى وهي الرّياحُ الجامعةُ لشتاتِ السّحبِ ليتولّد عنها المطر، ويُقابلُها الرّيح العقيم ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ وبعد تلقيحِ السّحبِ أنزلنا عليكم بلطفٍ ورحمةٍ ماءً وجعلناهُ عذبًا تشربُون منه وتسقون به زروعكم وبهائمكم، ولعلّ نكتة فاءِ التّعقيبِ هنا لأنّ ماء المطرِ لا يبقى على حالِه إذا ركد طويلاً ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ ولستُم أنتم من يحفظُ الماء الشّهوروالسّنواتِ ذواتِ العدد و إنّما الله هو الذي تكفّل بحفظِه في خزّاناتِ الأرضِ العظيمةِ، ولو شاءَ أبقاهُ فوق الأرض ففسد؛ أو أخفاهُ في أغوارِ الأرضِ فلم ييسّر لكم جلبه.

ومن دليلِ الحياةِ وهو الماء وشاهِد البعثِ وهو النّبات ينتقلُ إلى ذكرِ الإحياء والإماتةِ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ وأمرُ إحياءِ جميعِ المخلُوقاتِ أو إفنائها بيدِ الله وحدهُ، وشمل الإحياءُ إبقاءَ الحيّ حيًّا كما شملتِ الإماتةُ إبقاء الميّتِ ميّتًا، والتّعبيرُ بالمضارعِ يناسبُ الحالينِ من حيثُ إفادة التّجدّد، وفي "نحيي ونُميتُ" طباقٌ ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ والبقاءُ الأبديُّ الذي لا يعتريهِ موتٌ لله وحده؛ فهو مالك كلّ شيءٍ وإليهِ مرجعُ كلّ شيءٍ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾ ولله وحدهُ علمُ مَن سبقَ من النّاسِ عددًا وعُمرًا وعملاً ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ وهو العالم كذلك بمن هو حيٌّ ومن سيأتي كلّهم، والآيةُ مِن عمومات القرآنِ وللمفسّرينَ فيها آراءُ عديدةٌ أشهرُها ما أوردناهُ وقد ناسب ذكر الإحياءِ والإماتةِ قبلاً، وبينَ "المستقدمين والمستأخرين" طباقٌ وهو من محسّناتِ الكلام ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ والله سيحشُرُ جميع البشرِ في موقفٍ واحدٍ للحسابِ، وأكّد الخبر لأنّه مما اعتيد إنكارُهُ، وذكر الحشر بعد دليلين للبعثِ: فإنّ من قدر على النّشأةِ الأولى لم تصعب عليهِ الثّانيةُ، وإنّ الذي جعل النّاس يتعاقبُون في الأرضِ على مراحل لم يخلقُهم إلاَّ لامتحانٍ بعدهُ حسابٌ ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ إنّ الله صاحبُ الحكمةِ المطلقةِ في كلّ ما قدّرهُ وخلقهُ وهو أعلمُ بمبدئِهم وحالِهم ومآلِهم.

٤. أصل خلق الإنسان والجان، وتكبر إبليس عن السجود لآدم عليه السلام

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣)﴾

وبعد إيعازِ جميعِ الموجوداتِ لله خلقًا و إبداعًا ذكرَ النّوع الإنسانيّ والذي هو أبرزُ الأحياء ومن أجلِه خُلقت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ ولقد أنشأنا الإنسان الأوّل آدم من طينٍ يابسٍ خالطهُ سوادٌ فغيّرهُ، والصّلصال الطّينُ اليابس؛ سمّي بذلك لصلصلةِ صوتِه إذا احتكَّ ببعضه ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرّحمن ١٤]، والحمأُ الطّينُ الذي اسودَّ ببقائه في الماء، والمسنون المتروك مدّةً أشبه بالسّنةِ فكانت سببًا لنتنه وتغيّرِه؛ من سنَّهُ فهو مسنونٌ؛ ومنهُ: ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة ٢٥٩] ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ وخلقنا الجانّ الأوّل إبليس قبل خلقِ آدم من نارٍ لطيفةٍ شديدةِ الحرارةِ، والجانّ أو الجنّ واحدٌ هو اسمٌ للجنسِ؛ وقيل: الجانّ أبوهم الأوّل؛ والأكثر على أنّه إبليس، و"نار السَّمُوم" نارٌ تدخل في مسامِّ الأجسامِ، والظّاهرُ أنّ الجانّ هنا أريد بهِ إبليس كما أنّ الإنسان أراد به آدم؛ ولا يتعارضُ هذا مع: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصّافّات ١١] لأنّ خلق آدم مر بمراحل: التراب ثم الطين اللازب وهو الرطب الذي يلصق باليد، ثم الصلصال وهو اليابس الذي له صوت ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ واذكر يا مُحمّد ﷺ للنّاسِ قول الله للملائكةِ: إنّي سأخلقُ أوّل البشرِ آدم من طينٍ يابسٍ متغيّر خالطه السّواد، وإعادةُ تفصيلِ هذه الأمورِ للتّنبيهِ على إخراجِ الله العجيبِ للإنسانِ منها، وقد سمّى آدم عليه السلام بشرًا لكونه صاحب جلدٍ وبشرةٍ لا كالطّيرِ والحيوانِ بالرّيش والشّعرِ؛ أو لكونه يُباشر لا كالجنّ، وفي الآيةِ دليلٌ على تشريفِ آدم بذكرِه في الملأ الأعلى قبل خلقه. ولم يكن إخبارُ الله الملائكة استشارةً و إنّما مهّدَ للأمرِ بالسّجودِ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ فإذا أتممتُ خلقَ آدمَ وشاهدتُموهُ سويًّا كاملاً وقد أجريتُ فيهِ الرّوح، والنّفخُ هنا تمثيلٌ للإيصالِ وليس حقيقةً، وأسند النّفخ إليهِ كما أضاف الرّوح إلى نفسِه لنكتةِ التّشريفِ كقوله: بيتُ الله وعبد الله ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فانحنوا إلى الأرضِ ساجدينَ لأجلِ إبداعِ آدم، والسّجود لله تكريمًا لآدم عليه السلام لأنّه بمناسبةِ إبداعِه؛ فالملائكةُ دائمو السّجودِ لله في شتّى مظاهرِ قدرته، وأراد الله هنا أن يأمرهم بسجودٍ تنصرفُ كلّ النّيّةِ فيهِ إلى تعظيمِ الله في خلقِ آدم، وقد ذهبت طائفةٌ من المفسّرين إلى حملِ الآيةِ على ظاهرِها معلّلينَ بأنّ أحكام الله للملائكةِ

وأحكامه في العالم العلويّ وأحكامه في الأمم الغابرةِ لا تقاسُ بأحكامِ الإسلامِ الخاتم، وعلى كلٍ فليس هو بسجود عبادة، و إنما هو سجود احترام وتقدير تنفيذا للأمر الإلهي ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فخضع الملائكةُ لأمرِ الله بالسّجود كلُّهم لم يختلف أحدٌ منهم في الأمرِ ولم يتخلَّف عنه؛ و أفادتِ الفاءُ سرعةً في الاستجابةِ، و أكّد الكلام بمؤكّدين تقديرًا لامتثالِ الملائكةِ وليمهّدَ لذمّ إباءِ إبليس ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ إلاَّ إبليس رفض استكبارًا أن يسجُد مع بقيّةِ السّاجدين لأجلِ آدم، و إبليسُ مأمورٌ بالسّجودِ لكونه في العالمِ السّماويّ مع الملائكةِ؛ وإلى ذلك أشار قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف ١٢]، وهو ليس من جنسِ الملائكةِ قطعًا لأنّه عصى ولأنّ أصله من نارٍ والملائكة من نورٍ، وقد ذكرهُ باسمه "إبليس" تحقيقًا لمعنى مسمّاهُ عليهِ؛ فهو من الإبلاس أي الخسار. حاورَ الله إبليس قائلاً: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ يا إبليسُ ما منعكَ من السّجودِ مع جملةِ السّاجدينَ؟ والاستفهامُ توبيخٌ إقامةً للحجّةِ عليهِ والله أعلم بحالِه، ومحاورةُ الله لأهلِ الشّقاوةِ تنبيهٌ إلى أسلوبٍ حضاريٍّ رفيعٍ ينبغي أن يُفعّل في تسييرِ القضايا والمعضلاتِ. أجاب إبليسُ بغفلتِه مجترئًا: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ لا يليقُ بي أن أسجد لأجلِ بشرٍ مخلوقٍ من طينٍ يابسٍ نتنٍ تغيّرَ لونه، وفي تعبيره بلامِ الجحودِ (لأسجد) تأكيدٌ لعدمِ السّجودِ؛ فهو أقوى من: لا أسجد، والمعنى لا أسجُد لمن هو أدنى منّي قدرًا؛ فأخطأَ من وجهين: اعتقادُه أنّ أصله أفضل من أصلِ آدم ولا دليل يقطعُ بأفضليّةِ النّارِ على الطّينِ أو العكس؛ ثمّ جعلُه التّفاضل في أصلِ الخلقةِ التي ليس للمخلوقِ دخلٌ فيها بدل الطّبائع والخصال.

٥. طرد إبليس من رحمة الله، وطلبه الإنظار، وعزمه على إضلال الإنسان

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤)﴾

وهكذا يفصلُ الله في حُكمِ إبليس قائلاً له: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ اخرج من منزلةِ الملائكةِ ومجاورتهم أو من جنّة الخيرِ والرّغدِ؛ فإنّك منبوذٌ بسببِ عصيانِك، والرّجمُ هنا استعارةٌ للإبعادِ، والخروجُ من المقامِ العلويّ هبوطٌ وهو أمرٌ قطعيٌّ، أمّا أن يكونَ من جنّةِ الجزاء فظنّيٌّ، ثمّ إنّ العالم العلويّ لا يعني الجنّة فقط بل هو أعمّ، والآيةُ صوّرت قداسة عالم الملائكةِ حتّى إنّ العاصي يقصى منهُ

لا يترك ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ و أنت مطرودٌ من رحمتي لا تُقبلُ منك إنابةٌ إلى يومِ القيامةِ الذي تصلى فيهِ النّار، ويجوزُحملُ الغايةِ على الأبدِ أي ملعونٌ أبدًا؛ فيومُ الدّينِ يضربُ به المثل للبعدِ، وقصّــةُ إبليس وردت مجملةً ولا شــكَّ أنّ الله قد أعطاهُ فرصــةً للتّوبةِ وضــيّعها. ويطلُب إبليس من الله ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يا ربِّ أمهلني إلى يومِ تبعثُ النّاس لا تتوفّني، واستعمل النّداء بلفظِ الرُّبوبيّةِ توسّلاً للإجابةِ، ويظهرُ أنّ الله أعلمَ الملأ الأعلى وأعلمَ إبليس أيضًا بتعميرِ النّوعِ الإنسانِيّ للأرضِ وتناســلِه الطّويل فيها. أجابه الله ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ إنّك مؤجّلٌ إلى يومِ انتهاءِ الدّنيا؛ والوقتُ المعلوم قيامُ السّــاعةِ الذي اســتأثرالله بعلمه، فقد طلب إبليس التّأخيرإلى يوم البعث خوفًا من الموتِ فأجاب الله طلبه في التّأخيردون مرادِه في عدمِ الموتِ، وفي ذلك ابتلاءٌ قدّرهُ الله لامتحانِ البشريّةِ ليرفع درجةَ من خالف إبليس ويخزي من انطوت نفسه على حبِّ الشّرّوأهله؛ كما أنّ في تأخيرِه زيادة عصــيانِه فيتضــاعفُ جزاؤُهُ. قال إبليسُ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يا ربِّ بسـببِ جعلكَ لي من أهلِ الغوايةِ والخذلانِ سـوفَ أتفرّغُ لتزيينِ المعاصـي لأهلِ الأرضِ، والأرضُ هنا مقابل العالم العلويّ الذي أُمرَبالسّــجودِ فيهِ مع الملائكةِ لآدم؛ أنزل إليها الشّــيطان قبل آدم عليه السلام، واللاّمُ في "لأزيّننّ" لامُ قســمٍ محذوفٍ تأكيدًا لعزمه على التّزيينِ ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وســأحاولُ قدرما استطعتُ أن أضلّهم جميعًا كما ضللتُ، و إبليسُ هنا ليس متشفّيًا على خالِقه الذي ناداهُ بـ"ربِّ" و إنّما صـرّحَ بلسـانِ الحالِ بقانونِ تجاذبِ قوى الخيرِوالشّرِّفلا بدَّ من تسـلّطِ أحدها على الأخرى ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ باسـتثناءِ مَن حفظته مِن عبادكَ وعصمته مني فلا أقدرُعلى إضلاله، والْمُخلَص بفتحِ اللاّم المصـفّى والمزكّى مِن السّـوء بالتّوبة، واحترزَ إبليسُ مِن تحدّي الله فيما علم أنّه لا يقوى عليهِ لتبيّنِ عاقبةِ متحدّي الله عندهُ. أجابه الله: ﴿قَالَ هَذَا صِــرَاطٌ عَلَيَّ مُسْــتَقِيمٌ﴾ هذا أمرٌفصــلتُ فيهِ قبل أن تصـرّحَ به بأن أعصـمَ الأتقياء من إغوائك، والطّريقُ المسـتقيم هنا مسـتعارٌللجدِّ في بلوغِ المقصـدِ؛ كما أنّ قاصـد هدفٍ يسـلُك أقرب الطّرقِ وأوضحها ليصـلَ إلى هدفه، وليسَ في "عليّ" إيجابٌ على الله و إنّما هووعدٌ للخلقِ وسنّةٌ أجراها فيهم ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ تأكيدٌ لما قالهُ إبليسُ؛ أي إنّ أوليائي الذينَ عصمتُهم بإخلاصِهم من غوايتِكَ ليس لك قوّةٌ لتتسلّطَ عليهم، إلاّ من أطاعك فغوى فســتتمكّنُ منهُ، وليســت هذهِ مناظرة حقيقيّة بين الله و إبليس و إنّما هي محطّاتٌ تكوينيّةٌ -الله أعلمُ بمدّتها- تطوّرت فيها نفسُ إبليس نحو الأســوأ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وإنّ عذاب جهنّم لينتظرُ إبليس و أتباعهُ جميعًا، أكّد الموعود بلفظِ "إنّ" كما أكّد جمعَ الغاوينَ لهُ بلفظِ "أجمعين"، والموعدُ مكانُ الوعدِ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ لجهنّمَ سبعةُ مداخلَ؛ ولكلِّ مدخلٍ جماعةٌ معيّنةٌ تدخلُ منهُ حسـبَ حالِها وعملها، وقيل: السّـبعةُ للكثرةِ، وعلى كلٍّ فإنّ تعدّد الأبوابِ دليلٌ على كثرةِ مَن يدخلها، وإنّ كونها بالأبوابِ أخوفُ إذ تنغلقُ على أصحابِها.

٦. بيان جزاء المتقين، وقصة ضيف إبراهيم عليه السلام

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠)﴾

ومقابلةً لذكرِ فريقِ الشّيطانِ الغاوي ومصيرِه يذكر الله المتّقين السّعداء ومنازلهم ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ إنّ الخائفينَ لله المجتنبين للمعاصي يستحقُّون ثوابَ الجنّاتِ التي تفيضُ عيونُها بشتّى المشاربِ كالماء المصفّى والخمرِ اللّذيذةِ، والجنّات شملت البساتين والقصور، والجمعُ بينَ ذكرِ الجنّاتِ والعيونِ تلويحٌ بوجهٍ من الجمالِ المهر، ويجوزُ تفسيرُ العيونِ بالأنهارِ لأنّها فرعٌ عنها وفي القرآنِ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر٥٤]. يقال لهم: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ ادخلوا إلى ذلكم النّعيم وسلامُ الله يُصاحبُكم لا تخافُون مكرُوها فيها، أو ادخلوها مع قولكم السّلامَ للمؤمنين والملائكة وغيرِهم، وذكر الأمنِ مع الدّخولِ تنبيهٌ إلى أنّه أوّل نعمةٍ في الجنّةِ؛ إذ لا قيمة لعيشٍ بلغ الذّروة في التّمتّع ووراءهُ خوفٌ أو مكروهٌ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ ومن تمامِ نعمةِ الله على المتّقينَ كذلك أن دفع كلّ خواطرِ الحقدِ ومسبّباتِ الشّحناءِ من صدورِهم، والمرادُ بهذا الغل الذي ينّزع ما كان جبلّيًا لا يدفع؛ ومن هنا جاء فعلُ النّزعِ لله، أمّا عداواتُ الدّنيا فقد خلّصوا أنفسهم منها بالتّوبةِ ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ تراهم في الجنّةِ كالإخوانِ على الأرائك ينظُرُ بعضهم إلى بعضٍ بالسّرورِ والابتهاجِ، والسّرر جمعُ سريرٍ وهو مكان قعودٍ مريحٌ واسعٌ يحتملُ وضعياتٍ متعدّدة من الاتّكاءِ مما يساعدُ على الرّفاهيةِ والرّاحةِ، وفي ذكرِ التّقابل تلميحٌ إلى أنّ حياة العُزلةِ والإدبارِ ليست من خصالِ أهلِ الجنّة ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ لا يلحقُهم في الجنّةِ تعبٌ بأيّ سببٍ من الأسبابِ، والنّصبُ التّعب والإرهاق، ومن التّعبِ الدّنيويّ الملل من طولِ النّومِ والرّاحةِ فهو غير موجودٍ في الجنّةِ ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ وهي جزاءٌ أبديٌّ لهم لا يبعدُون عنه أبدًا، كما أنّهم لا يرغبون في الابتعاد عنه للنّعيم السّالفِ، ومن تمامِ النّعمةِ دوامها وتوقّع زوالها أمرٌ مكدّرٌ لها.

ثمّ يمهّدُ الله بتمهيدٍ بديعٍ لذكرِ أنباءِ بعض الأنبياءِ مع أقوامهم؛ وذلك بإعلانه افتتاحًا أنّه ذو الغفرانِ والرّحمةِ مناسبةً لمن سيمدحهم بالإيمانِ و أنّه صاحبُ العذابِ لأقوامهم الذينَ عاشُوا على

العصيانِ ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أخبر أيّها الرّسُول ﷺ عبادي جميعًا بأنّ صاحب المغفرة الحقيقيّ وأهل الرّحمةِ الكاملةِ هو الله وحده، وذلك لمن أتاهُ بتوبةٍ نصوحٍ ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ وأخبرهم بالمقابلِ أنّ عذابَ الله هو العذابُ الأشدّ في الفظاعةِ والألم، وذلك لمن عصاهُ وتكبّر عن هداهُ، وبدأَ بالمغفرةِ والرّحمةِ ونسبهما صراحةً إلى ذاتِه ولم يقل في العذابِ و أنا المعذّب؛ ترجيحًا لجانبِ الرّحمةِ على الغضب.

ثمّ يعطفُ إلى قصصِ بعضِ الأنبياء بدايةً من إبراهيم عليه السلام ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وأخبر النّاس أيّها الرّسُول ﷺ عن قصّةِ إبراهيم عليه السلام مع أضيافه، والمراد بهم الملائكة الذين جاؤوا إلى إهلاكِ قومِ لوطٍ عليه السلام ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ حينَ دخلُوا على إبراهيم عليه السلام في مقرّ ضيافته فألقوا عليه تحيّةَ السّلام، والنّزول إلى قصّةِ الضّيافةِ مباشرةً ثمّ حكايةُ السّلامِ بلا ردّه مختصرًا منهجٌ قرآنيٌّ بديعٌ في معالجةِ القصصِ في لبِّ موضوعها دون المقدّماتِ والتّفريعاتِ وفق ما يقتضيه الحال والسياق. قال إبراهيم لوفدِ الملائكةِ: ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ إنّنا خائفون من قدومكم إلينا، و"إنّا" كلامُ إبراهيم عليه السلام عن نفسه وأهلِه، وفي القصّةِ محذوفٌ معلوم من مواضع قرآنيّةٍ أخرى وهو: أنّه قدّم لهم عجلاً سمينًا فرأى أيديهم لا تصلُ إليه، والوجل الخوفُ. طمأنَ الأضيافُ إبراهيم عليه السلام بقولِهم: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ لا تخف لقد جئنا نحملُ بشرى لك بأن ترزقَ ولدًا يكون صاحب علمٍ واسعٍ؛ وهو إسحاق عليه السلام، والبشارةُ هنا لإبراهيم عليه السلام ولامرأته أيضًا بشارةٌ كما في مواضعَ أخرى، وفي الآيةِ تلميحٌ إلى أنّ خير ما ينتظرُه الزّوجانِ ولد نجيب ذو علمٍ وأدبٍ قبل أيّ أمرٍ آخر؛ وقيل: العلم هنا إشارةٌ إلى ما سيكونُ من نبوّة إسحاق. أجابهم إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ هل جئتم إليّ بالبشارةِ على حالِ الشّيخوخةِ التي أصابتني؟ فبأيّ شيءٍ جئتُم تبشّرونني؟ والاستفهامانِ للتّعجّب لتيقّنه أنّهم ملائكةٌ صادقُون وليس استنكارًا واستغرابًا؛ نزّل الأمر المعلوم لشدّةِ تعجّبِه من حصولِهِ منزلةَ الأمرِ غيرِ المعلوم فراحَ يستفهمُ عنه، و"على" بمعنى: معَ؛ أي جاءت بشارتُكم إليّ مع إصابتي بالكبرِ. ردَّ عليهِ وفدُ الملائكةِ: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ لقد جئناكَ ببشرى صادقةٍ فلا تستسلم للقنوطِ واليأسِ من الولد و أنت طالما كنت ترجوهُ، وفي هذا تغذيةٌ إيمانيّةٌ فعّالةٌ في اليقينِ باللهِ في تحقيقِ كلّ مستحيلٍ ودفعِ كلّ مستعصٍ، ولم يقولوا له: لا تكن قانطًا؛ تأدّبًا معه لأنّ مثله بعيدٌ عن هذهِ الخصلةِ. أيّد إبراهيم عليه السلام كلام الوفدِ بقولِه: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ أجل فلا ييأسُ من الحصولِ على فضلِ الله ونعمائهِ إلاّ الضّالُّون الجاهلون لقدرِه، والاستفهامُ إنكارٌ أي لا يليق القنوطِ بغيرِ الضّالِ من رحمةِ الله.

ومن الملاحظِ أنّ الله يرسلُ الملائكة في التّعذيبِ بالجماعةِ تهويلاً وتشديدًا كإمداداتِ الحروبِ بالثّلاثةِ آلاف وخمسةِ آلافٍ بخلافِ التّبشيرِ فقد جاء جبريلُ إلى مريم وحدهُ؛ ولعلَّ إبراهيم عليه السلام سأل الملائكة بناءً على عددِهم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ما هو الشّأنُ الذي جئتُم من أجلِه يا ملائكة الله بعد أن بشّرتُموني بالغلام؟ والخطبُ الأمرُ الجلل. أجابه المرسلُون: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ جئنا لإهلاكِ قومِ لوطٍ الذينَ شاعت فيهم الفواحش ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ نهلكهم جميعًا باستثناءِ أتباعِ لوطٍ عليه السلام من المؤمنينَ فإنّا سننجّيهم لا نهلكُ منهم أحدًا ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ كما نُهلكُ امرأةَ النّبيّ لوط عليه السلام و إنّا قد أردنا أن تبقى مع المهلكينَ لا تنجو، وأسند الملائكةُ فعل التّقديرِ لأنفسهم مجازًا لأنّهم رسلٌ وهو فعلٌ لله، والغابر الباقي في الشّيء، وخصّها بالذّكرِ مع أنّها من القومِ المجرمينَ إمعانًا في تبيينِ عدمِ نفعِ القرابةِ في الشّفاعةِ والنّجاةِ في حالِ فقدانِ الصّلاحِ والإيمانِ.

٧. عقوبة الله تعالى لقوم لوط عليه السلام

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَ أَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)﴾

ثمّ يأتي إلى حكايةِ حوارِ جماعة الملائكةِ مع لوطٍ عليه السلام بعد أن فارقت إبراهيم عليه السلام ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ فحينَ نزل وفدُ الملائكة على لوطٍ عليه السلام أضيافًا غرباء، ونزولهم كان على لوطٍ و إنّما ذكر الآل معه لأنّ الملائكة جاءت من أجلِ تنجيتهم. قال لهم لوط عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ إنّكم جماعةٌ مجهولةٌ لا نعرفُكم. أجابه وفدُ الملائكةِ: ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ليس الأمرُ كما ترى فإنّا رُسل الله جئنا نخبرُك بتحقّقِ ما كان يشكُّ فيه قومك من وعيدِ الله في إهلاكِهم، والامتراء الشّكّ ﴿وَ أَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ولقد جئناكَ بخبرٍ صحيحٍ ثابتٍ و إنّنا صادقُون فيما نقول ونَصِفُ، وعبّروا عن الإتيانِ بالماضي و أكّدوا كلامهم وفصّلُوه بين صفةِ الحقّ ومصداقيّةِ قولهم لإفادةِ

مزيدٍ من معنى تحقّقِ الموعود ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ و إنّا نأمرك بأن تأخذ معك أتباعك المؤمنينَ في فترةٍ متأخّرةٍ من اللّيلِ، والقِطْعُ الجزءُ؛ ولا يلزمُ منه آخرُ اللّيل و إنّما فسّرناهُ بذلك مناسبةً لخروجِهم تسلّلاً بعد أن يغطَّ القوم في نومِهم ولقربِ آخر اللّيل من الصّباحِ الذي أهلكوا فيه، وقد نص الله تعالى في سورة القمر أن نجاتهم في وقت السحر ﴿وَ اتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ وكن سائرًا خلفهم، ولعلَّ هذا لحثّهم على المسيرِ؛ ولتأمينِ من خافَ وتعثّر؛ ولئلاَّ يشغل باله عن الذّكرِ بمن بقيَ خلفه؛ ولكي يكون كالحائل بينهم وبين العذابِ تنويهًا ببركةِ الرّسُول؛ ثمّ إنّ كونه وراءهُم أدعى لعدمِ التفاتِهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ ولا ينظر أحدُكم خلفهُ؛ وهو نهيٌ مطلقٌ ويُحتملُ أنّه مقيّدٌ بساعةِ العذابِ، وهذا لئلاَّ يصيبهم الفزعُ بما يلقى قومُهم؛ أو حثًّا لهم على إخلاصِ الهجرةِ وتركِ التّعلّقِ بالوطنِ ولو بنظرةٍ؛ أو هي كنايةٌ عن الإسراعِ فلا نهيَ؛ أو نهاهم عن الالتفاتِ لأنّه عذابٌ يطمسُ بصرَ كلّ من نظر إليهِ ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ و اتّجهُوا إلى النّاحيةِ التي أمرتُم بالاتّجاهِ إليها، وفي هذا تلميحٌ بالإسراعِ أيضًا، ثمّ إنّ أمر الخروجِ وجهته وحيٌ للنّبيّ إذ لا يجوزُله ترك قومه قبل الإذنِ ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ وأوحينا إلى لوطٍ عليه السلام بأنّ أولئك المجرمين سيُستأصلُون عن آخرِهم مع بزوغِ الصّباحِ، والقضاءُ هنا بمعنى الإخبار بوجهٍ قطعيٍّ جازمٍ، وفي "ذلك الأمر" إشارةٌ للتّعظيم وإبهامُ الأمرِ للتّهويل، وقطعُ الدّابرِ وهو الآخِر كنايةٌ عن الاستئصالِ الكلّيّ.

ثمّ يحكي الله ما كان من شأنِ القومِ مع الملائكةِ الأضيافِ ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ و أقبلت جماعةٌ من المدينةِ التي يسكنها لوطٌ عليه السلام على غايةٍ من الطّمعِ في النّيلِ من شرفِ أضيافِه الذين سمعوا بقدُومهم، والتّعبيرُ بالاستبشارِ الذي أصلُه أن يكون في أمرِ الخيرِ يصوّرُ مدى شناعة القومِ و انقلابِ معاييرِ الفضيلةِ والرّذيلةِ لديهم، وصيغَ الفعلُ مضارعًا لإفادةِ تجدّدِه ولاستحضارِ حالِه العجيبةِ وكأنّها تقعُ الآن. استنكر لوطٌ قدومهم و اندفاعهم بقوله: ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ إنّ هؤلاءِ أضيافٌ لي فلا تلبسوني رداء الفضيحةِ بالتّعرّضِ لهم، علّل لهم حرمة التَّعرُّض لهم بِسوء بثلاثةِ أمورٍ: بأنّهم أضيافٌ وأنّهم نازلون عنده وأنّ مثل هذا العمل ضررٌ به بالفضيحةِ والخزيِ قبل أن يكون ضررًا بالأضيافِ ﴿وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ وخافُوا عقاب الله في فعل ما لا يرضى ولا تهينوني فيهم؛ ووعظهم بالوازعِ الدّينيّ وهم كفّارٌ لمبدئهِ الدّعويّ واستقصاءً لأسبابِ التّخلّصِ من المشكِل؛ ثمّ شفّع ذلك بالوازعِ العرفيّ همسًا في نخوةِ العِرقِ والقُربِ. ردَّ القومُ على نبيّهم: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ألم نمنعك مِن أن تحول بيننا وبينَ مَن أردناهُ بالفاحشةِ؛ وأرادوا بالعالمين تعميم كلّ أصناف النّاسِ الذين يمرُّون بهم؛ كأنّهم قالوا: ألم ننهك من جعل نفسك مطمعًا لمن يحتمي منَّا، فاحتالُوا مكرًا ومراوغةً في قلبِ المخطئ محقًّا وجعلِ المحقّ مخطئًا وحالُهم يقُول: لو امتثلت نهينا لم

يصبك منّا ما تكرهُ، وقيل الآية بمعنى: ألم ننهكَ أن تُكلّمنا في أحدٍ. قال لهم لوطٌ عليه السلام ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ إن كان ولا بُدَّ من قضاءِ شهوتِكم فدونكم النّساء فتزوّجوهنَّ، والإشارةُ ربّما كانت إلى معيّنٍ و إنّما أرادَ جنسَ مَن أشارَ إليهنّ؛ ولا يبعُد أنّه أرادَ بنات صلبِه، أو"بناتي" أتباعُه من النّسوان ضمّهنّ إلى نفسه مجازًا لمقامِه من قومه؛ كما ضمَّ إبراهيم عليه السلام البنينَ في قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم ٣٥]، ومرادُهُ من "فاعلين" النّكاحُ الصّحيح بالزّواج فالنّبيّ لا يعقلُ أن ينهى عن فاحشةٍ ثمَّ يدعُو إلى أشبه بها ﴿لَعَمْرُكَ﴾ وَعُمرك يا أيّها الرّسُول؛ قسمٌ بعمرِ النّبيّ مُحمّدٍ ﷺ؛ وهو سمةُ تشريفٍ له ﷺ ولم يُسمع نحوهُ في حقّ نبيٍّ آخر؛ اللّهمّ إلاّ أن يُقال هذا من كلامِ الملائكةِ للوطٍ عليه السلام، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاتِه ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ إنّ قومَ لوطٍ في ضلالٍ فظيعٍ يتخبّطون فيهِ، والجملةُ اعتراضيةٌ جيء بها للإعلامِ بعدمِ منفعةٍ ترجى وراء دعوةِ أمثالِ هؤلاءِ، والسّكرةُ هنا مجازيةٌ في ضلالِهم الشّديد الذي كانوا فيه أشبه بمن فقد عقله، والعمهُ فسادٌ للقلبِ كما أنّ العمى فسادٌ للبصرِ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ وكانت نهايةُ القومِ مع إشراقِ الشّمس لَمّا نزل على قريتِهم صوتٌ قويٌّ مدوٍّ؛ وهذا أوّل مقطعٍ من العذابِ ثمّ يأتي جعل عاليها سافلها ثمّ إمطارُها بالحجارةِ ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ فجعل الله أعالي بناياتها وعروشها مستويةً بالأرضِ؛ وهذهِ حالُ القرى المدمّرةِ بالزّلازلِ؛ وهي أنسبُ بما نسمعُه من الزّلازِل هنا وهناك عبر الزّمن سُنّة الله في أخذِ القرى، وذهب أكثرُ المفسّرينَ إلى معنى قلبِ القريةِ عليهم بتقديرِ وجعلنا سافلها عاليها؛ وهو من منقولاتِ كتبِ اليهودِ والنّصارى والله أعلمُ بصحّتِه، وبين "عاليها وسافلها" طباقٌ وهو من محسّناتِ الكلام ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ وأسقطنا فوقهم أحجارًا مطبوخةً بالنّارِ؛ وهذا أنسبُ بتفسيرِ زلزلةِ قريتِهم؛ وعلى رأيِ قلبِ القريةِ أُوّل الإمطار بأنّه قبل القلبِ أو هو بعدهُ وهم يحسّونه كحالِ المعذّبِ في قبرِه أو هو عذابٌ لمن كان خارجًا، وعبّر بالإمطارِ تصويرًا لشدّةِ تهاطلِ الأحجارِ وكأنّها مطرٌ ينزلُ، والسّجّيلُ اختُلِفَ في معناهُ وأصلِ كلمته؛ والأقربُ أنّه من سجلِّ الكتابةِ تنبيهًا بأنّها مقدّرةٌ عليهم بأسمائهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ إنّ في عذابِ قومِ لوطٍ لعبرا جليلة لكلّ مَن تأمّل أسباب هلاكِ الأممِ وخرابِها ليقفَ على سننِ الله التي لا تُحابي أحدًا، أو الإشارةُ عائدةٌ إلى مبدأ قصّةِ إبراهيم عليه السلام وما في ذلك من محطّاتٍ إلى هذا الموضع، و"المتوسّمون" جمعُ متوسّمٍ من الوسمِ وهو السّمة والعلامة؛ وهم المتحصّلُون على معرفةِ الأشياء بالنّظرِ في سماتِها ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ وإنّ آثار قريةِ قومِ لوطٍ وموضعها الأصليّ لثابتةٌ معلومةٌ لم تنسَ وهي في فلسطين؛ وهي باقيةٌ ما بقيت إلى الآن؛ وهي كقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾ [الصّافّات ١٣٧] أو أراد بأنَّ مصيبة قومِ لوط باقيةٌ وأنها سنّةٌ إلهيّةٌ في كلّ مَن عصى كعصيانهم؛ على حدِّ قولِه تعالى السّالفِ: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر ٤١] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وإنّ في بقاء تلكم الآثارِ لدلائل في حدِّ ذاتِها لكلِّ مؤمنٍ ليتيقّنَ بأنّ القادر على إبقائها شاهدَ عبرةٍ هو نفسه من يُحذّرُكلّ أمّةٍ بعدهُم مِن أن يُصيبها ما أصابهم.

٨. تكذيب أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر المرسلين، و انتقام الله منهم

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦)﴾

ثمّ يأتي بعد قصّةِ إهلاكِ قوم لوطٍ المجرمين إلى قصّةِ شعيبٍ عليه السلام مع قومه ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ ولقد كان أصحابُ الأيكة وهم قومُ شعيبٍ؛ أَهْل ظلمٍ لأنفسهم بنقصِ الكيلِ والإفسادِ في الأرضِ وقطعِ الطّريقِ وغيرِ ذلك[٣]، والأيكةُ جمعُها أَيْكٌ وهو الشّجرُ الملتفّ؛ ولعلّ المراد منطقةٌ عرفت بذلك الشّجر كانوا يتمتّعُون بها فَلم تكن على تلك الحال إلاّ لخصوبتها ووفرةِ مائها، وقيل: شعيبٌ أُرسِل إلى أهل قريةٍ هي مدين وأهلِ باديةٍ وهم أصحابُ الأيكة ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأخذناهُم بالعذابِ الشّديدِ[٤]، والانتقامُ المجازاةُ على الذّنبِ؛ مِن النَّقمِ وهو الإنكار على الفعل ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ وإنّ قرية قوم لوطٍ وقومِ شعيبٍ لفي طريقٍ واضحٍ يشاهدُه السّائحون، وسمّي الطّريقُ إمامًا لأنّ السّائر فيهِ يهتدي بهِ، ولقد جمع بينَ قصّةِ الأقوامِ الثّلاثةِ قومِ لوطٍ وقومِ شعيبٍ وقومِ صالحٍ لأنّ بقايا قراهم ظلّت مشاهدةً لكفّارِ مكّةَ في أسفارِهم؛ كما أنّه اجتمعت عليهم أحوالٌ من عذابِ الصّيحةِ والصّاعقةِ والرّجفةِ.

ثمَّ يعرُج بالحديثِ إلى القصّةِ الرّابعةِ في السّورةِ عن ثمود قومِ صالحٍ عليه السلام ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولقد كذّب سكّانُ المنطقةِ المعروفةِ باسم "الحجر" دعوة التّوحيد التي جاءت بها الرّسل، والقومُ ثمود ورسُولهم صالحٌ؛ وعبّر عنه بالجمعِ تعظيمًا ولأنّ تكذيب الواحد من الرّسلِ تكذيبٌ للكلِّ لأنّ بعضهم يُصدّقُ بعضًا، والحِجرُ اسمُ موضع بين المدينةِ والشّام آثارُه باقيةٌ إلى اليومِ عُرف باسم وادي القرى ومدائن صالحٍ ﴿وَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ وبصّرناهم دلائل عظيمة مبهرة تدلُّ على قدرتنا ليُؤمنوا لكن قابلوها بالتّصدّي والإعراض، كالنّاقةِ التي خرجت لهم من غير ولادةٍ، ويجوزُ أن تشمل الآياتُ آياتِ الوحي أيضًا والله أعلمُ برسالةِ صالحٍ عليه السلام، والآياتُ آتاها لصالحٍ

---

[٣] كما جاء في قوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ [الأعراف ٨٦].

[٤] وفصّلهُ في مواضع أخرى كقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [العنكبوت ٣٧].

و إنّما نسبَ الإتيان إليهم لأنّهم معنيّون بها ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ وكانُوا يتّخذون في هياكِل الجبالِ العظيمةِ بيوتًا لسكنِهم الآمن الهادئ، والنّحتُ الحفرُ في الجسمِ الصّلب، وكان عملُهم هذا ترفًا يوحي بقوّتِهم وصلابتِهم؛ أو طلبًا للأمنِ من خطرِ الوديانِ ونحوِها، وقيل: لأنّ أعمارهم طويلةٌ وبيوت السّهولِ تبلى مرّاتٍ خلالها ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ فحين تمادوا في تكذيبِ رسُولهم أخذهم الله بالصّيحةِ المدوّيةِ مع ساعاتِ الصّباحِ الباكرِ ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فلم تنفعهم بيوتهم التي أمنوا فيها دهرًا طويلاً ولا نفعتهم أموالُهم وزروعهم وأولادُهم وما فرّغُوا حياتهم من أجلِ إنمائه و إنشائه.

ولمّا انتهى في قصّةِ قوم صالحٍ إلى ما فيهِ تلميحٌ بتقديرِ الهدفِ من الوجودِ في هذهِ الحياةِ ناسبَ أن يتمّم بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لم يكن خلقُنا لهذا الكونِ البديع بما فيهِ من السّموات والأرض وما بينهما وما فيهما من المخلوقاتِ العجيبةِ المختلفةِ إلاَّ لأجلِ أمرٍ حقٍّ ليس فيه وجهٌ من اللّعبِ ولا العبثِ ولا الباطلِ؛ وهو أن يُعبد الله وحدهُ، ومن هذا البابِ أهلك الله الظّالمين لئلاَّ يستشريَ ضلالُهم ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ وإنّ قيام السّاعةِ آتٍ على كلّ حالٍ ليُجزى كلٌّ بما عمل؛ أشارَ بهذا تصبيرًا لقلبِ النّبيّ ﷺ ممّا كان يلقاهُ من قومه ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ فأعرض عمَّن كذّبوك وتلطّف معهم فإنّ جزاء مكرِهم لا يُوفّيهِ إلاَّ الله، وفي "فاصفحِ الصّفح" جناسُ اشتقاقٍ، ودعوته إلى أجملِ الصّفحِ تشريفٌ لمقامِه ﷺ بأنّ مثلك لا يصدُرمنه إلاَّ أحسن الصّفحِ فضلاً عن الرّدّ بالسّوءِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ إنّ الله هو الخالق لكلّ شيءٍ يعلمُ أحوال خلقه جميعًا وما يصلُح لهم؛ فأوصى بالصّفحِ وهو أعلمُ بثِمَاره الحسنةِ، والصّيغتانِ للمبالغةِ أي كثيرُ الخلقِ واسعُ العلم، والتّنويه بهاتينِ الصّفتينِ إيماءٌ إلى تنزيهِ الله الخبيرِ من العبث في الخلق والتّصريف.

٩. بيان عظمة القرآن، و إنذار المكذبين، وأمر بالجهر بالدعوة ومداومة العبادة

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾

بعد قصصِ الأنبياءِ وما تضمّنتها من تسليةٍ للرّسُول ﷺ ذكرَ الله له الرّسالة التي خصّه بها ليضعهُ في مضمارِ الصّبرِ والدّعوةِ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ ولقد أكرمناك أيّها الرّسُول ﷺ بسبع آياتٍ فواتحَ وبالقرآن العظيم، وعبّر بالإتيانِ لأنّه أقربُ لمعنى الامتنانِ، والسّبعُ المثاني هي فاتحة القرآن على أشهرِ الأقوال[٥]؛ سمّيت بذلك لأنّها تثنّى قراءتُها في الصّلاةِ وغيرِها أي تعادُ أكثر من مرّةٍ، فالمثاني جمعُ مُثنّى أو مَثْنَاة، وفي الآيةِ عطفُ العامّ وهو القرآن على الخاصّ وهو السبع المثاني وليسَ عطفًا للمغايرة ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ لا تتطلّع إلى متاعِ الدّنيا الفاني الذي بسطناهُ لبعضِ الكفّارِ حولك؛ فبينَ يديك أشرف من كلّ ذلك وهو القرآن، ومدُّ العينِ كنايةٌ عن الطّمعِ والفضُول، والأزواج الأصناف؛ ولا بأس من تأويلِ: ما متّعنا بهِ الكفّار ونساءهم لأنّ الجنسينِ يكمّلُ بعضُهما تمتيع الآخر. وبالمقابِل ينهاهُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لا تغتمَّ بحالِ قومك إذا ضلُّوا و انحرفُوا مع الدّنيا وملذّاتها ما دُمتَ قد بلّغت لهم، وفي هذا إيماءٌ إلى شفقةِ الرّسُول ﷺ وطولِ صبرِه ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكن ليّنَ الجانبِ مع أتباعِك المؤمنينَ، وفي خفضِ الجناحِ استعارةٌ لحالِ نزولِ الطّائرِ على بساطِ صغارِه بكلّ رقّةٍ ورأفةٍ، وأصلُ جناحِ الإنسانِ يدُهُ وفي قصّةِ موسى عليه السلام ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ [القصص ٣٢] ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ وأَعلِم النّاس جميعًا بأنّك المنذر عن الله بعذابِ النّارِ الدّائم بالإنذاراتِ الواضحةِ تثبيتًا لمن آمن وزجرًا لمن كفر، ويجوزُ تأويلُ المبينُ لطريقِ الحقّ الموصل للجنّةِ ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ وكما أنزلنا العذاب على المجتهدينَ في القَسَمِ بأن لا يُعذّبُوا نزلُه عليكم؛ وهذا التّأويل مناسبٌ لذكرِ الإنذارِ، أو الاقتسامُ من التّقسيمِ أي كما أنزلنا العذاب من قبلُ على اليهودِ والنّصارى وغيرِهم الذين جعلُوا القرآنَ أقسامًا فآمنوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ نزلُه عليكم؛ وهذا مناسبٌ لما سيذكُرُه عن القرآنِ[٦] في قوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ الذين حينَ جاءهم القرآن جعلوهُ أجزاءً متفرّقةً آمنوا ببعضٍ وكفرُوا ببعضٍ، و"عضين" من التّعضيةِ وهي التّجزئة، وهنا تسليةٌ للرّسُول ﷺ مما كان يلقاهُ من قومه وهو يُبلّغُ القرآن ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قسمًا بربّكَ يا مُحمّد سوفَ نسألُ جميع المقتسمينَ وغيرَهم عن كلّ شيءٍ عملُوهُ في الدّنيا، والجمعُ بين هذهِ الآيةِ وقولِه ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرّحمن ٣٩] أنّ الآخرة محطّاتٌ فإذا فرغ الحساب وشهد الأشهاد لم تعد تنفعُ مع المجرمين مساءلةٌ؛ أو يُسألون سؤال تقريرٍ ولا يُسألُون سؤال استعلامٍ واستفهامٍ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ فأعلن

---

[٥]: "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُمُّ الْقُرْآنِ وَأُمُّ الْكِتَابِ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي" رواهُ أبو داود، كتاب: الصّلاة، باب: فاتحة الكتاب، رقم: ١٤٥٧(٢/٥٨٦). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

[٦] وهذا أشملُ ما ورد من اختلافٍ في تفسيرِ "المقتسمين" وثمّةَ تأويلاتٌ أُخرَ، يُنظر: تفسير النّكت والعيون للماوردي نموذجًا.

دعوتَك يا مُحمّد ﷺ واجهر بها لا تأبه بما يقولُه المشركون ولا تهتمَّ بهم، وأصلُ الصّدعِ الشَّق استعمل في لازمِ ذلك وهو ظهورُ ما خفيَ منه، وبنزولِ هذه الآية في السّنةِ الرّابعة للبعثةِ تحوّلتِ الدّعوةُ المكّيّةُ من طبيعةِ التّخفّي إلى الجهرِ ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ إنّا تكفّلنا بردّ أعدائكَ المستهزئين بدعوتك عنكَ، وكفايةُ الاستهزاء وهو أقلّ الأذى معناهُ كفايةُ ما هو فوقه من طريقِ الأولى، و أكّد الجملة لحصولِ مزيدٍ من الإيقانِ بالوعدِ ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الذين أشركوا بالله غيره من الأصنام والأوثان في العبادةِ، وفي هذا تلميحٌ إلى أنّهم لم يقتصرُوا على الاستهزاءِ بك حتّى استهزأوا بذاتِ الله، وجاء فعلُ الجعلِ مضارعًا لإفادةِ تجدّدِ ذلك منهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ فسوف يعرفون حقَّ المعرفةِ ما ينتظرُهم من العذابِ حين يرونه، وفي حذفِ مفعولِ "يعلمون" ما يبعثُ على تهويلٍ للوعيدِ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ و إنّا نعلمُ بأنّك تجدُ ضيقًا كبيرًا وحرجًا مما يصفونَك به، كقولِهم ساحرٌ ومجنونٌ، واللاّمُ في "لقد" للقسمِ أتبعت بحرفِ التّحقيقِ تأكيدًا لتأييدِ الله له ﷺ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فكن يا مُحمّد ﷺ منزّهًا لله باستحضارِ ما يُحمدُ بهِ ودفعِ ما ينقص من قدرِه، ويأتي التّسبيح في القرآن يرادُ به الإنكار على المشركين ما يقولونه ومنه: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء ٩٣] ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ وكن من الخاضعين لله، ولا بأسَ بتفسيرِ السّجودِ هنا بالصّلاةِ؛ والله ذكرَها برمزِ الخضوعِ الأظهرِ فيها ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ وداوم على العبادةِ والإذعانِ لله فيما أمرَ به أو نهى عنه حتّى تحلَّ عليك ساعةُ الموت، وهنا عطف عموم العبادةِ على خصوصِ التّسبيحِ والسّجودِ لإفادةِ الشّمولِ، واليقينُ أراد به الموت سمّاهُ بذلك لتيقّن إتيانه، وهناك مفسّرُون رأوا بأنّه النّصر الموعود بتأويلِ: داوم على طلبِه حتّى يُعطى لكَ.

تمّ بحمدِ الله تفسير سورةِ الحجرِ وتليها سورةُ النّحل.

تفسير سورة النحل

سـورةُ النّحلِ مكّيّةٌ في معظمِها وبها آياتٌ مدنيةٌ اختُلف في تحديدها؛ اشـتملت على ثمانٍ وعشـرين ومئة آيةٍ، وسُمّيت "سـورة النّحل" لورودِ آيةِ هذهِ الحشـرةِ العجيبةِ فيها؛ ولأنّه لفظٌ ذكر مرّةً واحدةً فيها ولم يتكرّر في سورةٍ غيرها، وقد نزلت بعد سورةِ الأنبياء وقبل سورةِ السّجدةِ.

تحدّثت باسـتفاضـةٍ على غرار السّـورِ المكّيّةِ في تعريفِ الخالقِ من خلالِ بدائع صـنعِه؛ وتخلّل ذلك اهتمامٌ بقضـيّتي البعثِ والجزاء، فنوّهت بشـأنِ القرآنِ وحقيقةِ الحياةِ الدّنيا وحذّرت من حبائلِ الشّـيطانِ، وتضـمّنت مجادلةً لأهلِ الشّـركِ في معبوداتِهم مرسّـخةً عقيدةَ التّوحيدِ الصّـحيحة وفق معالمِ رسـالةِ الإسـلام، وقد عالجت أحوال الدّعوةِ الإسـلاميّةِ الجديدةِ تعلّمُ الرّسُـول ﷺ أسـاليبَ معاملةِ قومه وتُسلّيه ممّا كان يلقاهُ منهم من استهزاءٍ بهِ وتكذيبٍ لحقائق دعوتِه.

١٠. التذكير بالبعث وبالحكمة من إنزال القرآن الكريم، وبقدرة الله ونعمه

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَى أَمْرُاللَّهِ فَلَا تَسْـتَعْجِلُوهُ سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْـرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَـانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِـيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْـرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِـقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌوَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)﴾

لَمّا كانتِ السّـورةُ في معظمِها تعريفا بالخالق وتبيينا للهدفِ من الحياةِ لأجلِ إقامةِ الحجّةِ على المشـركين الذينَ دأبُوا على الإعراض؛ اسـتهلّ بهذا المطلع البارع ﴿أَتَى أَمْرُاللَّهِ﴾ أي أوشـك حلول قيامِ السّـاعةِ أو عذابُ إهلاككم، وأبهم الأمروأضافه إلى مَن لا يعظُم عليهِ أمرٌللتّهويل، واستعمل الماضي مكان المضارع لإفـادةِ حتميّـةِ الوقوعِ؛ أو أراد أنّـه بـدأت أمـاراتُـه كانشـقـاق القمرِ ومبعـثِ الرّسُـول الخـاتم ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ والهاءُ لله أو لأمرِهِ في العذابِ أو السّاعةِ؛ أي فلا تستبعدُوا حصول أمرِه حتّى تتمنّوا وقوعه قبل وقته المقدّرِ؛ والنّهيُ للكفّارِ الذينَ وردَ عنهم مثل: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ؟﴾ [يس ٤٨] ﴿سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْـرِكُونَ﴾ تقدّسَ الله وتنزّه عن كلّ شـركٍ نسـبه النّاسُ إليهِ، وسـياق الكلام كان يقتضـي أن يأتي الكلام بصـيغة الخطاب (عما تشـركون) ولكن قال (يشـركون) وفي هذا التفات من الخطابِ إلى الغيبةِ لنكتةِ التّهوينِ من شـأنِ المشـركينِ ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الله هو الذي

يرسلُ جبريل عليه السلام بالوحيِ ليوصلهُ إلى صفوةِ خلقِه من الرّسُلِ الكرام، والظّاهرُ أنّه أراد بالملائكةِ واحدًا هو جبريل وعبّر عنه بالجمعِ تعظيمًا، والرّوح عنى به الوحي؛ سمّي بذلك لأنّه تحيا القلوب به كما تحيا الأجسادُ بالروح، ومعنى "من أمرهِ" تأكيدٌ لإذنِه له في نزولِه المتكرّرِ بالوحيِ. وقد قامت دعوةُ المرسلين على أصلٍ مشتركٍ تُنادي إليه: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أعلموا النّاس بأنّهُ ليس ثمّةَ في الوجودِ من إلهٍ يستحقُّ العبادةَ إلاّ الله الواحد الصّمد؛ فعليكم أن تخافُوا عذابه، والإنذارُ هنا منصرفٌ إلى الحاصلِ من عدمِ الاستجابةِ للتّوحيدِ، والمقطعُ على إيجازِه معجزٌ جامعٌ للشّريعةِ، فجملة التّوحيدِ مفتاحٌ لصلاحِ الاعتقادِ؛ والأمرُ بالتّقوى محرّكٌ لِلعملِ بالمطلُوبِ واجتنابِ المذمومِ. ثمّ يأتي إلى بيانِ بعضِ البراهين الدّالةِ على عظمتِه و أنّه المستحقُّ للعبادةِ وحدهُ؛ وبدأَ بأقواها وأظهرِها وأجمعها ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الله هو الذي أبدعَ السّمواتِ العلا وما فيها من عجيبِ الكواكبِ والأفلاك؛ كما أبدع الأرض الممدودة وما تضمّنت من بحارٍ وجبالٍ وأنهارٍ، لأجلِ أمرٍ ليس بعبثٍ وهو أن يُعبد وحدهُ، ويُطلقُ وصفُ الحقّ في القرآنِ كما هنا دلالةً على كمالِ الفعلِ ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تأكيدٌ للتّنزيهِ السّابقِ عمّا اتّخذهُ المشركون لله من الشّركاء، وعبّر بالمضارعِ تنبيهًا لبقائهم على الشّركِ واستمرارِهم فيه ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ بيانٌ لأمرٍ عجيبٍ؛ أي إبداعُ الله لأكرمِ المخلوقاتِ وهو الإنسان من أحقرِ الموجوداتِ وهيَ النّطفةُ، وسُمّيت نُطفةً من فعلِ نطفَ أي قطرَ، و"الإنسان" هنا أراد بهِ جنس الأشقياءِ كما هو عموم إطلاقِه في القرآن ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ [العلق ٦]؛ وهذا التّنبيهُ ليستدلَّ الإنسانُ من أصلِه لما ينبغي أن يكون عليهِ من التّواضع ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ فإذا بهِ يصير شديدَ الخصومةِ لله يُنكرُ وجودهُ ويجحدُ رسالته ويكفُر بالبعثِ ودارِ الجزاء بصراحةٍ ومجاهرةٍ، وذكرُ الإبانةِ (مبين) إشارةٌ إلى إكرامه بالعقلِ الذي لم يحسن استخدامه، وفي قوله (فإذا) لا يوجد معنى المفاجأةِ لله فإنّ الله أعلمُ منه بحالِه. وبعد أن بين الله خلق الإنسان يبيّنُ منّته في خلقِ الحيوانِ إذ هو قريبٌ منه صنعةً ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾ والله هو الذي خلقَ الإبل والبقروالغنم والمعز؛ وإذا عُطفت الجملة على التي قبلها حصل لدينا معنى خلقِ الأنعامِ من نُطفةٍ أيضًا لبيانِ عجيبِ ما صوّرها عليهِ بعدُ من الجمالِ ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ وجعل لكم فيها منافعَ كثيرةً كركوبِها وشربِ لبانِها؛ ومن منافعها كذلك تدفئةُ أجسادكم من البردِ بالألبسةِ والأفرشةِ التي تنسجونها من أصوافها وأوبارها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ومن المنافعِ أيضًا أنّكم تذبحون منها متى شئتُم وكم شئتُم لتأكلوا، واهتمّ بأخفى المنافعِ وهو الدّفء لأنّهم أهل صحراءٍ ثمّ نبّهَ إلى أظهرِها وهو الأكل ليجعل العقل يفكّرُ فيها كلّها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ولكم في منظرِ الأنعامِ جمالٌ يُعجبكم؛ حين تعودون بها من المراعي وحينَ تخرُجون بها إليها، و"تُريحون" من الرّواحِ وهو الرّجوع عشيًّا بالمواشي من المراعي ويُقابله السّراح وهو الخروج بها صباحًا؛ وهنا محسّنُ الطّباقِ بين (تريحون) و(تسرحون)، وقدّم الرّجوع لأنّه أقوى جمالاً

فَالأنعام تعود وقد امتلأت بطونها تتبخترُوتلهو بخلاف الذّهابِ، والتّعبير بالمضارعِ في الأكلِ والإراحةِ والسّروحِ تنويهٌ بالتّجدّدِ الذي هو تجدّدٌ للنّعمة ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ ومن منافعِ الأنعام أنّها تحملُكم وتحملُ أمتعتكم الثّقيلة إلى أمكنةٍ لا يُمكنُ أن تصلُوا إليها لولا نعمةُ التّنقّلِ بها إلاّ بجهدٍ جهيدٍ؛ وبالقرينةِ فُهِم أنّه يشيرُهنا إلى الإبل لأن الغنم والبقر لا تصلح لذلك، والشِّق من المشقّةِ، ومن الإيجازِ البديعِ في الآيةِ اختيارُلفظِ "أثقالكم" فشمل ثقلَ الجسدِ وثقلَ المتاعِ فمن المعلومِ أنّهما يؤثّرانِ معًا في بلوغِ المكانِ البعيدِ، ونكّر"بلد" لتعظيمِ بُعده ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إنّ إلهكم أيّها النّاس عظيمُ الرّأفةِ بكم رحيمٌ لضُعفكم، والمراد ينبغي استشعارُذلك عند رُكوب أيّ دابّةٍ، ورأفةُ الله ورحمتُه الدّنيويّة شملت الشّقيَّ وغيرهُ ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ والله قد سخّر الخيل؛ وهو اسمُ جمعٍ لا مفردَ له إلاَّ في معناهُ كالفرس؛ وسُمّيت خيلاً لمشيها الذي يظهرُعليهِ الخيلاء، والبغال؛ جمعُ بغلٍ للذّكرِ و أُنثاهُ؛ أبُوهُ من الحميرِ وأمّه من الخيلِ؛ وإذا كان العكسُ فهو البِرْذَوْن[٧]؛ هذا لأنّ أنثى البغلِ من خصائصها العقم فلا تلد، والحمير؛ جمعُ حمارٍ ويُجمعُ أيضا على أحمرةٍ وحُمرٍ يُذكرُ بهذا تغليبًا على أنثاهُ "الأتان" ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ لتتّخذ وسيلةً للرّكوب مزيّنةً في خلقتِها وما تُضيفونه لها، وذكرَفي هذهِ الأصناف الرّكوب كما ذكرفي الأنعامِ الأكل تنبيهًا للمقصدِ الأظهرِفيها؛ والفقهاءُ قد فصّلُوا حلّية أكلِها من عدمه ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والله يخلُق ما سوى تلكم الحيوانات من وسائلِ الرُّكوبِ التي تتطوّرُعصرًا بعد عصرٍ؛ كالعرباتِ المجرورة والسّيّارات والدّرّاجاتِ والقطاراتِ والطّائراتِ والصّواريخ؛ ولعلّ الله سيخلُق أعجبَ من كلّ ذلك، ومعنى خلقِه لها أنّه علّم الإنسان صنعها ويسّره وخلق المواد التي تصنع منها هذه الآلات، والظّاهرُأنّ محمل الآيةِ أوسع من هذا والمراد: وفي الكونِ في الحاضرِ والآتي من المخلوقاتِ ما لا تعلمونه أنتُم ولا مَن يأتي بعدَكم. وبعد ذكرِهذهِ الدّلائل التي هي مظنّةُ الإيمانِ باللهِ ومعرفتِه قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ والله هو المبيّنُ لطريقِ الهدايةِ لكلّ مَن أراد الاهتداء، من السّبيلِ المنحرف المبعد عن الصّواب؛ و"منها" أي من السّبيل ما هو منحرف، ويجوزُعودُ الضّميرإلى الخلائقِ أي منها من لا ينتفعُ بالبيانِ، والسّبيلُ هنا استعارةٌ لطريقِ الحقّ ذكرهُ بعدَ وسائلِ التّنقّلِ اهتمامًا بالمناسبةِ، والجائرالمائل عن الحقّ، وقصد السبيل: بيان وتوضيح الطريق المستقيم ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولو أراد الله لجمعكم على طريقِ الهدايةِ كلّكم بلا استثناءٍ ولكن من حكمته أن ترك كلاًّ لاختيارِه، والله قد بسطَ هدايةَ البيانِ وهيَّأها لكلّ النّاسِ؛ ولم يشأ توفيقهم جميعًا إلى ثمرتِها.

---

[٧] قال الأستاذ المدقق أن البرذون سلالة من الخيول غير عربية (تركية) ولها خصائص تميزه عن الخيول ..وصحح التفسير أن العكس هو البغل نفسه، لكن فيما أعلم أن العكس يسمى النغل...فليحقق من بعض المراجع العلمية

١١. من نعم الله على الإنسان

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)﴾

وبعد ذكرِ خلقِ الإنسانِ والحيوانِ عرجَ إلى بيانِ ما هو أصلٌ لحياتِهما تتمّةً لعرضِ منِنه ونعمِه ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الله وحدهُ لا غيرُه أنزلَ عليكم من السّماءِ بلُطفٍ ورحمةٍ ماءً تنتفعون به، والسّماء ما سما فوقنا ولهذا قيل لسقف البيت سماء ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ وقد خصّكم الله بقدرٍ من الماءِ العذب الصّافي لتشربُوهُ، وقدّم "لكم" لنكتةِ الاهتمامِ والامتنانِ ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ ومن الماءِ المنزلِ أخرجَ الله لكم شجرًا تستظلُّون بهِ وترعونَ في حماهُ أنعامكم، ويُحتملُ أراد بالشّجرِ عموم النّباتِ تغليبًا لمناسبة الرّعيِ فيه، و"تُسيمون" من أسامَ الرّباعي إذا ترك الماشية على المرعى حيثُ شاءت؛ مأخوذٌ من السِّيما والعلامةِ لبقايا الآثارِ في الأرضِ والنّباتِ بعد الرّعيِ ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾ والله قد أنبتَ من الماءِ شتّى أنواع الزّروعِ كما أحيا به أشجارَ الزّيتونِ والنّخيل والأعناب المختلفةِ بثمارِها المتنوّعةِ وبأشكالِها البديعةِ في منظرِها، واستعمال الفعل المضارع (ينبت) لبيانِ إبداعِ الله المستمرّ الدّائبِ المتجدّد ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ تعميمٌ بعد تخصيصٍ لإفادةِ الشّمول؛ أي أخرج من الماءِ الواحدِ كلَّ أنواعِ الثّمراتِ التي تَطعَمونها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إنّ في إنزالِ الماءِ وإخراجِ الزّروعِ والثّمارِ به لآيةً عجيبةً يُبصرُها أهل التّأمّلِ؛ كيف يبدأُ ذلك النّباتُ وكيف يتطوّرُ في مراحل ثابتةٍ إلى أن يقدّمَ ثمارًا يُنتفعُ بها، وذكرَ التّفكّر هنا تنبيهًا إلى هذهِ العبادةِ الشّريفةِ (عبادة التفكر) التي تقوّي عزائم الإيمانِ؛ ووصفهم بالقومِ إشارةً إلى أنّها صفةٌ من خصائصِ قوميّتِهم؛ كما أوردَ الفعل بالمضارعِ إيحاءً بأنّهم على ذلكَ دائمون ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وبسطَ الله عليكم من النّعمِ أيضًا نعمةَ تقلّبِ الزّمانِ بينَ اللّيلِ والنّهارِ، بينَ نورِ القمرِ وضوءِ الشّمسِ؛ وخلالَ ذلكَ منافع كثيرة فيسترُّ الإنسانُ طاقتهُ بهدوءِ اللّيلِ وارتياحِه فيهِ لينطلقَ نهارًا نشيطًا يكدُّ ويعملُ ويُبدعُ؛ كما أنَّ عامّةَ المخلوقاتِ تستفيدُ من ذلك ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ والنّجومُ الكثيرةُ فوقكم في السّماءِ قد جعلها الله بأمرِ "كن" فكانت في نظامٍ دقيقٍ من أجلِكم، وأعادَ لفظَ التّسخيرِ اهتمامًا بالتّذكيرِ بنعمِه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إنّ في تسخيرِ اللّيلِ والنّهارِ والشّمس والقمر والنّجوم لآيات عظيمة لأهلِ العقولِ، وخصّهم بالذّكر لأنّهم هم المنتفعون بها، وذكرُ

العقلِ هنا أنسبُ مع المخلوقاتِ العلويّةِ بخلافِ التّفكّر المبنيّ على الإبصارِ والسّماعِ؛ فالاكتشافات المعاصرةُ للعلماءِ في علمِ الفلكِ كم أثبتت من حقائق بناءً على نظريةٍ وبحثٍ ولم يكن لهم فيهِ حظٌّ لإبصارِ هيئتِه أو سماعِ صوته ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ وممّا سخّرهُ الله كذلك سائرُ ما خلقَ في الأرضِ من أجلِكم؛ من حيوانات ونباتاتٍ ومعادنَ وجماداتٍ وأمورٍ أُخرى جعلَ في كلٍّ منها اختلافًا في مظهرِها الخارجيّ بالألوانِ البديعةِ التي زيّنها بهِ؛ أو أن المقصود بالألوان الأصنافُ والأحوال والكيفيّات لأنّ اختلافها داعٍ لاختلافِ الألوان، والذّرء الخلقُ والإبداع، وكرّر "لكم" إمعانًا في التّذكيرِ بالنّعمةِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ إنّ في تنوّعِ الخلقِ على ألوانٍ وأشكالٍ مختلفةٍ لأمرا عجيبا يبعثُ أهل الذّكرِ على تذكّرِ اللهِ والتّفكّرِ في عظمتِه، واستعمل التّذكّر هنا لأنَّ استحضارَ هذا الاختلافِ بديهيٌّ لا مشقّة للتّفكّر فيه ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ والله هو الذي ذلّلَ البحر الذي هو مظنّةُ المخاطرِ لأجلِ أن تصطادُوا منهُ مختلِف أنواعِ الأسماكِ والحيتانِ التي تتيسّرُ للأكلِ بطراوةِ لحمِها وسهولةِ نضجه، والأكلُ هنا بمعنى الأخذ أو يُقدّرُ مضافٌ أي لتأكلُوا من لحمهِ ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كما سهّل الله بفضلِه الغوص في أعماقِ البحارِ لأجل استخراجِ اللّآلئ النّفيسةِ التي تتّخذُ للزّينةِ، والسّينُ والتّاءُ في (تستخرجوا) لإفادةِ كثرةِ الإخراجِ، والحليةُ ما يُتزيّنُ به من الجواهرِ للإناثِ خصوصًا؛ وإسنادُ الفعلِ إلى ضميرِ الذّكورِ تغليبٌ فإنَّ حليةَ الرّجالِ محصورةٌ في أمورٍ قليلةٍ جوّزتها السّنّة ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ وعلى سطحِ البحرِ تُبصرُ أيّها العاقلُ المتأمّل السّفنَ العظيمة باتّساعِها وعظمةِ أحمالِها تسيرُ، وتوظيفُ فعل "ترى" هنا للحثِّ على التّعجّبِ من هذهِ الحالةِ المبهرةِ، و"مواخر" من المخرِ وهو شقُّ الماءِ لعبوره؛ يقال مخرت السّفينة البحر إذا عبرته ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ كلُّ ذلك التّسخيرِ لأجلِ أن تحصّلُوا المنافع والفوائد التي كتبَ الله لكم في التّجارةِ والأعمالِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وبيّن الله كلّ ذلك لكم عسى أن تشكروه على نعمه العظيمة الكثيرةِ التي سخّرها لكم.

١٢. دلائل وحدانية الله تعالى واستحقاقه العبادة دون سواه

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾

وبعد تفصيلٍ عنِ العالمِ العلويّ والعالمِ المائيّ يتواصلُ الحديثُ في ذكرِ النّعمِ وعرضِ عجائبِ الله في الأرضِ ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ وجعل الله في الأرضِ الفسيحةِ جبالاً عظيمةً تشدُّها وتضبطُ حركتها؛ لئلاَّ تضطرب بالنّاس أو كراهةَ أن تضطربَ بهم؛ على تقديرِ محذوفٍ، والمرادُ بأنّه لولا الرّواسي لكانَ سيرُ الأرضِ ودورانها في الفضاءِ أشبهَ بكرةٍ طائشةٍ لم تتّزن حركتُها لخفّتها أو لنقصٍ في كرويّتها؛ فنبّهَ إلى نعمةِ استقرارِها، والإلقاءُ هنا مجازٌ عن تمكينِ جسمٍ على سطحِ جسمٍ آخرَ ﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وجعل الله في الأرضِ أنهارًا وطرقًا كثيرةً تسهّلُ على النّاسِ التّنقّل من جهةٍ إلى أخرى، وذكرَ الأنهار عقبَ الجبالِ لأنّ معظمَ عيونها منها، ويجوزُ تأويلُ الاهتداءِ بأنّه معرفةُ الله من خلالِ هذهِ الآياتِ الباهراتِ ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ كما جعل الله لأجلِ اهتدائكم إلى مقاصدكم علاماتٍ على الطّرقِ بالأشجارِ أو الجبالِ أو البحيراتِ وغيرِ ذلك؛ ومنه أنّه علّم إنسان هذا العصر ليضعَ نظامًا مُحكمًا من الإشاراتِ المروريّةِ، وقيل: أُريدَ بالعلامات ما يهتدى بهِ نهارًا مقابلةً بالنّجوم ليلاً ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وبمواقعِ النّجومِ و أبراجها تتبيّنون الاتّجاهات في البراري المظلمةِ وفي البحارِ الموحشة بالأخصّ لأنَّ متابعةَ المسيرِ فيها ليلاً أمرٌ حتميٌّ، وعبّر بجنسِ النّجمِ مجازًا والمرادُ نجومٌ تعارفَ النّاسُ على الاهتداءِ بها، والتفتَ بالخطابِ إلى الغائبِ (يهتدون) تلويحًا بشأنِ أهلِ الصّحراءِ مع علمِ النّجومِ قبل أن ينغمس النّاسُ في زخمِ الحضارةِ التي حجبتهم صفاءَ السّماءِ وخريطةَ نجومها، وفي تقديمِ الجارِ والمجرورِ دلالةٌ على اعتمادِهم البالغ عليها ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ أيكون الخالق العظيمُ لهذهِ الكائناتِ العجيبةِ البديعةِ كمن لا يقوى على خلقِ شيءٍ منها؟ فيُسَاوَى مع الله في العبادةِ أو يُعبد من دونِ الله، والاستفهامُ إنكارٌ للياقةِ أن يكونَ ذلك أمرًا مقبولاً، وفي الآيةِ ما يُعرفُ بطباقِ السّلبِ بين (يخلق) و(لا يخلق) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتفكّرُون في الأمرِ فتتذكّرُون خطأَ تصوّرِكم بأدنى النّظرِ والاستنتاجِ؟ والاستفهام توبيخ وتقريعٌ.

وبعد الحديثِ التّفصيليّ للنّعمِ نبّهَ إلى مجملِ ذلكَ قائلاً: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ وإن تشرعُوا أيّها النّاسُ جميعًا في عدِّ نعمِ الله التي أسبغَها عليكم فلن تقدرُوا على ضبطِ عددِها، والمرادُ إذا لم تُحصوها عددًا فأنّى لكم أن تُحيطوا بها شكرًا؟ ولعلّ أمّهات النّعم معدودةٌ وهي نحو ما سبقَ في الآية أمّا أفرادُها و أنواعُها وفرُوعها فغيرُ معدودة بحالٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إنّ الله واسعُ المغفرةِ لتقصيرِكم رحيمٌ لضعفكم لا يُكلّفكم فوق طاقتِكم ولا يُعاجلُكم بالأخذِ على كثرةِ عصيانِكم.

وبعد تقريرِ انفراده تعالى بالخلقِ نبّهَ إلى كمالِه في العلمِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ والله يعلمُ كلَّ أمرٍ كتمتموهُ عنِ الخلقِ ويعلمُ كلّ أمرٍ جهرتُم بهِ وأعلنتُموهُ، أي يستوي عندهُ إسرارُكم وإعلانُكم؛ وقدّم الإسرار تحقيقًا للمساواةِ على أبلغِ وجهٍ فإنّه منطقيًّا بعلمه السّرَّ قد علمَ الجهرَ، والمرادُ أتغفلُون

عمّن شأنُه كذلكَ وتدعون غيرهُ ممّن لا يعلمُ سرّكم ونجواكم؟! ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ والأوثانُ وسائرُ المعبُوداتِ التي دأبَ النّاسُ على عبادتها من دونِ اللهِ لا تقوى على خلقِ أدنى شيءٍ، بل إنّها مخلُوقةٌ ضعيفةٌ؛ وهي مِن إيجادِ الله الموجِد لكلِّ شيءٍ أو بمعنى هي من صنعِهم فتكونُ الآيةُ مقصورةً على الأصنامِ، وفحوى المعنى إنّ مَن لا يخلُقُ لا ينبغي أن يُشاركَ قدرًا مَن يخلُق فضلاً عن أن يُعبدَ دونهُ، وفي الآية طباق السلب بين (يخلقون) و(لا يخلقون) ﴿أَمْوَاتٌ﴾ وهي معبوداتٌ ميّتةٌ أبدًا لعدمِ قيامِها بدورِ الحيّ القيّومِ أمّا الله فهو حيٌّ دائمًا بلا بدايةٍ ولا نهايةٍ، أي فكيف يتركون عبادةَ الحيّ القويّ الخالقِ ويلجؤون إلى عبادةِ المخلوقِ الضّعيفِ؛ وكيفَ يعبُدونَ متّصفًا بالموتِ وهم مكرّمون بالحياةِ؟ أيرضون بعبادةِ الفاضلِ للمفضُولِ؟ ودفعًا لتوهّمِ تشبيه المعبُوداتِ بالأمواتِ قال: ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي ليس المعبُودون من دونِ الله أحياءً مهما حاول المشركون إثباتَ الحياةِ لهم، ووصفها بالموت وعدم الحياة يقوي أن المراد ما يعبدون من دون الله تعالى من الجمادات كالأصنام ونحوها ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ولا تشعُر معبُوداتُهم بأنّهم عبدُوها حينَ يبعثُ الله الخلائقَ للحسابِ، و"أيّان" اسمٌ مركّبٌ من "أيّ" و"آنٍ"، وتضمّنَت الآية تهديدًا بحلولِ البعثِ وأهوالِه عليهم، كما أنّها ساقت تهكّمًا بهم؛ فمن شأنِ الآلهةِ أن لا يخفى عليها أمرٌ؛ فكيفَ وهي لم تشعُر بهم وهم يعبدونها! ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ إلهكم الحقيقيّ أيّها النّاس المستحقّ للعبوديةِ والدّعاءِ إله واحدٌ هو الفردُ الصّمد لا إله غيرُهُ ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ والذينَ لا يُصدّقون حقَّ التّصديقِ باليومِ الآخرِ وما تضمّنه من جزاءٍ ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ ستجدُ قلوبهم تُنكرُ ما تدعوهم إليهِ وتراهُم يستكبرُون عنِ الحقّ، والآيةُ قائمةٌ مقامَ التّعليلِ لما قبلها أي الذي جعلهم يدعون غير الله كفرُهم باليومِ الآخرِ، واستعملَ الجملتينِ اسميّتينِ للدّلالةِ على تمكّنِ الإنكارِ والاستكبارِ منهم ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تأكيدٌ للآيةِ السّالفةِ عن علمه سرّهم وإعلانَهم، أي لا بدَّ أنَّ الله يعلمُ ما يُخفون من نوايا الكفرِ والإعراضِ وما يُظهرُون من قولِ الكفرِ وعبادةِ الأوثانِ، والإخبارُ هنا مستعملٌ في تسليةِ قلبِ الرّسُول ﷺ وإلحاقِ التّهديدِ بالمنكرينِ، وقد تنوّع تفسيرُ اللّغويّينَ لتركيبِ (لا جرمَ) فقيل معناها: حقًّا أو لا محالةَ أو لابُدَّ أو هو بمعنى ثبتَ؛ وأحيانًا يتشرّب معنى القسمِ كما في هذِه الآيةِ؛ فإن التقدير: والله لا جرم.... ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ إنّ الله لا يرضى عن أهلِ الكبرِ ولا يكرمُ مقامَهم، والمرادُ التّحذيرُ من خصالِهم وفعالِهم، ولم يقل: لا يُحبُّهم وأظهرهُم بصفةِ الاستكبارِ ليشنّعَهم بعلّةِ عدمِ إيمانِهم، وفي الآية الكريمة تحذير شديد من التكبر على الحق والترفع عليه.

١٣. عاقبة تكذيب الرسل في الدنيا والآخرة

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾

ويستغرقُ الحديثُ في مجادلةِ الكفّارِ في طريقِهم الباطِل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ وإذا ما سئلَ الكفّارُ عن الوحيِ الذي أنزلهُ الله على رسُوله ﷺ، والقائلُون الكفّار بعضُهم لبعضٍ أي إذا سأل بعضهم بعضاً؛ وصرّحُوا بالإنزالِ وبلفظ الرّبوبيّةِ تهكّمًا، أو يكون السائل المسلمون، بتقديرِ معنى: أعلمتُم ماذا أنزلَ ربُّكم؟، أو عموم الكفّارِ يسألُون أهل مكّةَ استرشادًا فيصدُّونهم عن مُحمّدٍ ﷺ بقولِهم في رسالته على سبيلِ الاستهزاء: ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ما هي إلاَّ نفسُ حكايات القدماءِ الغابرةِ وليست كلامًا لله، ولم يريدُوا أنّها ذات أساطيرِ الأوّلينَ لأنّها قديمةٌ وهم يُسألُون عن أمرٍ حديثٍ و إنما قصدوا أنها من جنسها، والأساطير القصص المختلقة؛ جمعُ أسطورةٍ باشتقاقٍ من السّطر والكتابة ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ واللاّمُ في "ليحملُوا" للعاقبةِ لا للتّعليلِ؛ أي ليس المعنى: قالُوا ذلك لأجلِ أن يحملُوا؛ والمعنى لَمّا قالُوا: أساطيرُ الأوّلينَ كانَت عاقبةُ قولهم ذلكَ حمل ذنوبٍ عظيمةٍ كانت وبالاً عليهم يومَ القيام للحسابِ، والأوزارُ حقيقتُها الأثقال، ومعنى كونها كاملةً أي لم يُكفّر منها شيءٌ ولم يَخْفَ على الله منها جزءٌ بإهمالٍ أو نسيانٍ؛ على أنّ التّصريحَ بتمامها نفيٌ بأنَّ الله ضاعفها عليهم، ولكنه أبقاها على حالها عدلاً منه ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وسيحملُون أوزارًا ناشئةً عمّن سعوا في إضلالِهم وليسَ لهم حظٌّ من العلمِ يعرفُون بهِ أنّهم مضلَّلون فيجتنبُوهم، ويجوزُ حملُ الآيةِ على معنى أنّ المُضِلّينَ كانوا يُضِلُّونَ غيرهم غيرَ عالمينَ عاقبةَ عملِهم بأنّه وبالٌ أكبر عليهم؛ ولا يعني هذا بأنَّ من أطاعُوهم لا يزرونَ شيئًا، والآيةُ دليلٌ على أنّ الجاهل غير معذورٍ إذا قامت عليه الحجّة وغيرُه من باب أولى ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ألا لقد كانَ أمرًا فظيعًا اكتسابُهم لذنوبهم وذنوبِ غيرِهم، و افتتاحُ الجملةِ بـ"ألا" لجلبِ الانتباهِ لأمرٍ هامٍّ تضمّنَ تحذيرًا وزجرًا ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كما سعى قومُكَ أيّها الرّسُول ﷺ للطّعنِ في دعوتِكَ قد سعى مَن قبلهم مِن الكفّارِ بالمكرِ في أنبيائهم؛ ووراءَ هذا تسليةٌ له ﷺ وتهديدٌ لقومه ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فأخذهُم الله بعد شدّةِ إعراضِهم من تحتِ أبنيتِهم فانهدمت فوقَ رُؤوسِهم، والآية تمثيلٌ لقلبِ الباطلِ وإدحاضه؛ فالبناءُ

المحكمُ مَكْرُهم الذي دبّرُوه طويلاً أملاً في أن يستفيدُوا منهُ؛ فوقع عليهم الضّرّ ممّا توقّعُوا منه النّفع فكان شديدًا عليهم، وفي زيادةِ "من فوقهم" مع أنّ السّقفَ لا يكونُ إلاّ من فوقٍ إمعانٌ في تصويرِ شدّة إحباطِ المكرِ، ويجوزُ أن تكون الآيةِ على ظاهرها، وذلك أن تكون لبيان أحوالٍ حقيقيّةٍ للأممِ السّابقةِ لحظة نزول العذاب عليهم ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقد باغتَهم عذابُ الانتقامِ من حيثُ لم يتوقّعُوهُ فكانَ عسيرًا عليهم، والآيةُ شاهدٌ على قوّةِ اللهِ وعلمه وشاهدٌ على ضعفِ المخلوقينِ بوصفِهم بعدمِ الشّعورِ؛ فمهما بلغ البشرُ في القوّةِ فإنَّ قوة الله أقوى منهم. فَتلك نهايتُهم الدّنيويّة المؤلمة ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ وحينَ يقُوم النّاسُ لربّ العبادِ ليُحاسبَهم سيجعلُ الكفّارَ في مقامِ الإذلال والنّكالِ لا ينظُرُ إليهم بعينِ الرّحمةِ ولا يتُوبُ عليهم. وهنالكَ يسألُهم الله على سبيلِ التّوبيخِ: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ أينَ الذينَ اتّخذتُموهم شركاءَ لي في العبادةِ هل نفعُوكم اليومَ؟ والأسلوبُ تبكيتٌ لهم وتهكّمٌ؛ إذ لا مكانَ لنفع لشّركاءِ يومها، والمشاقّة المخاصمةُ التي لا يُرجى معها وفاقٌ حتّى جعلت كلاًّ من طرفي الصّراع في شقٍّ؛ وهي منهم للهِ بمجادلةِ رُسله وتسفيهِ رسالتِهم أو عن طريق مباشرٍ بإعلانِهم الكفر، ونسبَ الشّركاء لنفسه (شركائي) على زعمهم ليكونَ أشدَّ تبكيتًا لهم لأنّ مقامَ القهرِ والعظمةِ في الآخرةِ بيّنٌ لهم ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يقُول أهلُ العلمِ بسننِ الله من الصّالحينَ عامّةً في موقفِ تبكيتِ الأشقياءِ، وجاء القولُ ماضيا لإفادةِ تحقيقِ وقوعه ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ إنَّ الإهانةَ والعذاب قد وجبَا في هذا اليومِ على الكفّارِ وحدهُم، والتّوكيدُ والقصرُ مع استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ "على" إيماءٌ لتعجّبِهم من هولِ ما أعدّ لهم، وهذا القولُ منهم شماتةٌ بالكفّارِ؛ ويجوزُ حملُه على معنى الدّعاءِ منهم بأن لا يوقع الخزيَ والسّوء عليهم؛ نحو: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف ٤٧].

ثمَّ يستأنفُ الكلامَ في أحوالِ العصاةِ مع الموتِ مناسبةً لذكرِه الأخذَ بغتةً بالعذابِ ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الكفّار الذين تصادفُهم ملائكةُ الموتِ إذا جاءت لتأخذ أرواحَهم منغمسينَ في المعاصي والآثامِ ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ يتودّدُون بلُغةِ السّلمِ والاعتذارِ تاركينَ أسلوب المكابرةِ والعنادِ لظهورِ ضعفِهم، وهذهِ الحالُ تشبيهٌ بحالِ إلقاءِ السّلاحِ علامةً للاستسلام ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ يقولونَ: لم نكن في الدّنيا نصنع الشّرّ أبدًا، وهذا موقفٌ دنيويٌّ عقبَ رُؤيتِهم للملائكةِ أو هو موقفٌ أُخرويٌّ كقولِهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ٢٣]. فيردُّ الله على مقولتهم الباطلة: ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إنَّ الله الخبيرَ الرّقيبَ عليكم مطّلعٌ على جميعِ أعمالِكم، واستُعمل حرف "بلى" هنا ليبطلَ النّفيَ السّابق، ولعلَّ هذا الجواب من الملائكة، وأسندوا العلم إلى الله أدبًا؛ وليشعروهم بأنّهم إنّما يسيرُون بأمرِه ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فأقبلُوا على مصيركم الأبديّ بدخولكم أبوابَ

جنّهم، وتعدّد أبوابها دليلٌ على كثرةِ من يدخُلُها، والخطابُ للأصنافِ ولكلٍّ منها بابٌ ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وساءَ مقامًا مقامُ المتعالينَ على الحقِّ وهو جهنّم القائمُ عذابُها، وجعلهُ مثوى ـــ وسيذكُر الجنّةَ بالدّارِ ـ تسميةً له بما لا يزيدُ عن حقيقتِه وتفريقًا بينَه وبينَ مقامِ أهل الرّضوان، وفي الآية ما يدل على خطورة التكبر على الحق ورده ترفعا عليه.

١٤. جزاء المتقين في الدنيا والآخرة، وتهديد المكابرين على تكذيبهم

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤)﴾

ومقابلةً لفريقِ الكافرينَ يذكُرُ الله الذين اتّقوا ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ وكان شأنُ أهلِ التّقوى حين سُئلُوا: ما الذي أنزلهُ الله على رسُولكم، والقائلُون الكفّارُ للمؤمنين استرشادًا أو على سبيلِ التّهكّمِ أو القائلون المؤمنون بعضُهم لبعضٍ ﴿قَالُوا خَيْرًا﴾ أجابُوا: أنزل ما هو نفعٌ لنا وبركةٌ، وهذا الجوابُ منهم مقابلةٌ لجوابِ الكفّارِ السّالف إذ قالُوا: "أساطيرُ الأوّلينَ"، ووردَ خيرًا بالنّصبِ ليكون معمولاً لـ"أنزل" دلالةً على اعترافِهم بالإنزالِ بخلافِ "أساطيرُ" فجاءَ مرفوعًا في جملةٍ جديدةٍ.

ولمّا كان جوابُ أهلِ التّقوى ينمُّ عن صفاء سرائرِهم؛ والذي يُعدُّ محرّكًا نحو اتّباعِ الحقِّ و إنشاءِ العملِ الصّالحِ بيّنَ الله جزاءهم ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ الذينَ اكتسبُوا صالحَ الأعمالِ في الدّنيا واجتنبُوا المعاصي لهم خيرٌ دنيويٌّ يجدونَه كسعادةِ القلبِ وسعةِ الرّزقِ ونحوِ ذلك ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ وما يجدُونه من ثوابٍ أُخرويّ أعمُّ فضلاً وأكثرُ لدوامه وعلوّ شأنِه، والآيةُ دليلٌ على أنّ السّعيد هو من وجدَ حسنةَ الدّارين؛ على أنّ بعضَ المفسّرينَ ذهبُوا إلى تفسيرِ الآية بـ: من أحسنَ في هذهِ الدّنيا فلهُ في الآخرةِ حسنةٌ ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ وأكرِم بثوابِ أهلِ التّقوى في جنّاتِ الخلدِ نعيمًا ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أولئك سيدخُلون جنّاتِ النّعيمِ والإقامةِ الأبديّةِ التي تجري على جنباتِها ومن تحتِ قصُورِها الأنهارِ المختلفة المشاربِ والمطاعم، والعدن مكانُ الإقامةِ، وعبّرعنِ الدّخولِ بالمضارعِ المجرّدِ عن سينِ الاستقبالِ أو سوف (يدخلون) استحضارًا لذلك المشهدِ البهيجِ، وتجدّد ذكرِ الأنهارِ في وصفِ الجنّةِ تقريبٌ للعقل نحو مشاهدِ الرّوعة والابتهاج ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ يأتيهم من خيرِ الجنّاتِ ما شاءُوه كيفما شاءُوه بالقدرِ الذي شاءُوه؛ ولن يفجعوا بانقطاعٍ لما اشتهوهُ ولا بنقصٍ له عمّا

طلبُوهُ ولا بتأخّر عن الوقتِ الذي فيه أرادُوهُ؛ كلّ ذلك بلا كدٍّ منهم ولا حساب ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ وعلى ذلك النّحو من الجزاءِ والإكرام يثيبُ الله كلّ خائفٍ لمقامه متّبعٍ لمنهاجه.

وبعدَ ذكرِ الجنّةِ يبيّنُ الله أهل استحقاقِها وسبيلَ دُخولِهم إلى نعيمها: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ الذينَ حينَ تأتيهم ملائكةُ الموتِ لقبضِ أرواحِهم تجدُهم طيّبي السّرائرِ لم يحملُوا ذنوبًا أصرُّوا عليها، والملائكةُ لفظٌ عامٌّ أريد به خصوص ملائكةِ الرّحمةِ أو ملك الموتِ خاصّة ذكرهُ بالجمعِ تعظيمًا، وطيّبٌ مبالغةٌ في الاتّصافِ بالطّيبِ وهو هنا الحُسْن النّفسيُّ ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ تقُول لهم الملائكةُ: سلامُ الله يحلُّ عليكم فلا تخافُوا سوءًا أبدًا، ولعلّ موقفَ السّلامِ هذا مستمرٌّ من لحظةِ الموتِ إلى دخولِ الجنّةِ؛ حينَ تقُول الملائكةُ لهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ادخلوا إلى نعيمِ الجنّةِ الدّائمِ جزاء أعمالِكم الصّالحة، والآيةُ دليلٌ على أن سبب استحقاقِ الجنّةِ العمل الصّالح؛ وهذا لا ينافي أن دخولها من فضل الله تعالى، لأن التّوفيقُ إلى الصّالحات لم يكن إلاَّ بإذنه، وفي الآية دليل ــ أيضا ــ على اشتراط التقوى لدخول الجنة، ولا يكفي أصل الإيمان بلا عمل صالح وترك للمعاصي.

ثمَّ يعودُ الخطاب في شأنِ المكابرين ليجيب عن تساؤلٍ قد يردُ وهو: متى يستحقُّ هؤلاءِ المكابرون جزاءَهم المفصّل آنفًا؟ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ ما ينتظرُون بإصرارِهم ذلك إلاَّ أحد أمرينِ: مجيء الملائكةِ؛ وإتيانُ الملائكةِ تعبيرٌ عنِ الموتِ أو الأخذِ على شدّةٍ ومعاينةٍ، والاستفهامُ هنا إنكاريٌّ، وفي الحقيقةِ هم معرضون لا ينتظرُون شيئًا ولكن أثبتَ الانتظارَ لهم لأنّه نتيجةٌ حاصلةٌ منهم وإن لم يقصدُوها ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أو ينتظرُون مجيء وعيدِ الله بالانتقام منهم، وإتيانُ أمرِ الله حلول عذابٍ ما أو هو قيامُ السّاعةِ، والكلامُ للنّبيِّ ﷺ طمأنة له بتحقّقِ الوعدِ وتهديداً للكفّارِ حوله ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ على مثلِ حالِ هؤلاءِ في التّكبّرِ على الحقِّ والتّمادي على الكفرِ كان صنيعُ الكفّارِ قبلهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ولم يكن الله ظالِمًا لهم حينَ أخذهُم بالعذابِ لكنّهم هم الذينَ ظلموا أنفُسهم ببقائهم على الكفرِ والعصيانِ، وهذهِ الجملةُ اعتراضيةٌ لتنزيهِ مقامِ الله وتمهيدًا لسماعِ نبأ ما أصابهُم: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ فنالهُم العذاب جزاءً لما عملُوا من الآثامِ؛ أو نالهُم بسببِ ما عملُوهُ؛ وفي الآيةِ مقدّرٌ معلومٌ من المقامِ ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وعادَ عليهم استهزاؤُهم بالحقِّ وكفرُهم بهِ بالسّوء، فكانَ مصيرُهم الشّقاء الأبديّ، و"حاقَ" من الحيقِ وهي الإحاطة وتُستعمل في الشّرِ بالأخصّ.

١٥. كذب المشركين على الله تعالى، وبيان عاقبتهم

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧)﴾

وفي خضمّ الحديث عن الكفّارِ المشركين يورِد الله جملةً من تصوّراتِهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ يزعُم المشركون بأنّه لو شاء الله لجعلهُم هم و آباءَهم على التّوحيدِ فلم يعبُدوا غيرهُ أبدًا، والمرادُ بالآباء عموم الأجداد ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ كما يزعمون أنّه لو شاء الله لصدّهُم عن تحريمِ ما أحلّه من نحوِ البحيرةِ والسّائبةِ والوصيلةِ وغيرِها؛ لكنّه لم يشأ ذلك بل شاء أن يكون منهم الإشراك وتحريمُ ما أحلَّ؛ إمّا جبرًا منهُ أو توهّمًا بأنّه راضٍ عنهم لإمهاله لهم، وفي الآيةِ إطنابٌ لبيانِ مقولتِهم الغريبة، وهذا الزّعم الذي كشفُوا عنه إنّما نشأ عن محاولتهم تكذيب حججِ الرّسُولِ ﷺ و إفحامه لسُطوعِ أدلّته بالبلاغِ الذي سيذكُرُه، لذلك سيُسلّيه بقوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ على نحوِ ما اعتقد هؤلاءِ المشركون قد اعتقد مَن قبلَهم من أهلِ الشّركِ كذلك؛ والحاصلُ أنّه أخذهم بالعذابِ ولو رضي عنهم كما زعموا لما عذّبهم؛ فلِم لم يستدلُّوا بإهلاكهم بدل الاستدلالِ بإمهالِهم! ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ فاجتهد أيّها الرّسول ﷺ وبيّن لهم الحقّ واضحًا ولا تُكلفُ شيئًا فوق ذلك، والاستفهامُ في الآيةِ إنكاريٌّ بمعنى النّفي، أي: ليس على الرسول إلاّ البلاغ، وعبّر بلفظِ الرّسلِ دون الرّسُولِ لتعميمِ الحُكم مناسبةً لذكرِ أقوامهم.

وبعد إبطالِ حُجّةِ المشركينَ إجمالاً يتعرّضُ إلى تفصيلٍ فيها: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ ولقد أرسل الله في كلّ أمّةٍ رسُولاً، والآية دليلٌ على أنّ الله قد أقام الحجّة برُسله على كلّ الخلقِ، ولعلّ المراد هنا بقاءُ أثرِ الرّسُولِ ورسالته في كلّ أمّةٍ إذ هو الأصل ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ آمرا إيّاهُم بعبادة الله وحدهُ واجتنابِ ما دونه من المعبوداتِ، والطّاغُوت مبالغةٌ في وصفِ الطّغيانِ بزيادةِ واوٍ وتاءٍ؛ وهو سبيلُ الباطلِ عامّةً؛ وأصلُ المعنى اجتنبُوا عبادةِ الطّاغوتِ وحذفَ المضاف (عبادة) إيجازًا وإشارةً إلى اجتنابه من كلّ وجهٍ، والآيةُ بيانٌ لأصولِ الدّعوةِ بأنّها أمرٌ بالمكارِمِ ونهيٌ عنِ المفاسدِ ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ فمِن النّاسِ مَن علم الله منه دافع حبِّ الهدايةِ فأخذ بيدِه إلى الهداية ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ ومِن النّاسِ مَن كتب الله له البقاء على الضّلالِ لمّا علم منه الإصرار على مكابرةِ الحقّ، ولم يسند الله الإضلال إلى نفسه صراحةً لأنّه لا يرضاه ولا يدعو إليهِ خلافًا لزعمِ المشركينَ السّالِف،

وبين الهدايةِ والضّلالِ محسّنُ الطّباق ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فامشُوا أيّها المتأمّلون في الأرضِ لتُشاهدوا ماذا حلَّ بأهلِ التّكذيبِ من العذابِ وكيف كانت نهايتُهم، والآيةُ بيّنت إحدى مقاصدِ السّفرِ وهو الاعتبارُ بآثارِ الأقوامِ الخاليةِ ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ مهما تجتهد أيّها الرّسول ﷺ في إرشادهم ليهتدوا فإنّ الله قد قضى بعدمِ هدايةِ مَن علم منهُ الإصرارعلى الضّلالة فأضلّهُ، وفعلُ "يُضلُّ" لله؛ وفي قراءة ورشٍ: ﴿لاَ يُهْدَى﴾ بتقديرِ معنى: فإنّ من يُضلُّه الله لا يُهدى، وذكرُ الحرصِ هنا فيهِ تلويحٌ بخلقِ النّبيّ ﷺ في الرّأفةِ بأمّته مع كلّ ما يلقاهُ من الأذى في دعوته ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ وليس لهم ناصرغيرالله يأخذ بأيديهم إلى طريقِ النّجاةِ، أوليس لهم نصيرٌ من عذابِ الله إن جاءهم.

الرد على منكري البعث، وبيان جزاء المهاجرين، و إقراربشرية الرسول صلى الله عليه وسلم

﴿وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾

ومن تصوّراتِ أهلِ الشّركِ كذلكَ أنّهم ﴿وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ حلفوا بالله بأغلظِ الأيمان بأنّ الله لا يُحيي مَن مات من الخلقِ، والجَهد غايةُ الطّاقة المبذولةِ، وحكايةُ قسمهم هنا حكايةٌ لحالتِهم العجيبةِ في محاولةِ استدلالِهم بأنّهم متيقّنون ممّا لم يتأمّلُوا فيهِ بعدُ، ومن ثَمّ جاء الرّدُ على مقالتِهم: ﴿بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ ليس كما يدّعون؛ و"بلى" إبطالٌ للنّفي السّابق، فوعدُ النّاسِ بالبعثِ وعدٌ ثابتٌ و اقعٌ؛ وإن ظنّ المشركون بأنّ الأجساد إذا بليت لا تُعادُ ثانيةً، و"عليهِ" أي على الله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ غيرَ أنّ أكثرَ النّاسِ لم يأخذوا مسألةَ البعثِ عن علمٍ يقينيٍّ فاكتفوا بالمعرفةِ السّطحيّةِ التي لا تُؤثّرُ في السّلوك؛ والعلم هنا مؤوّلٌ بالاستيقان، أو لا يعلمون قدرةَ الله في بعثِ الموتى فينكرون ما يجهلُون ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وإنّ الله باعثُهم ليبيّنَ لهم حقيقةَ ما عاشُوا مختلفينَ فيهِ من أمورِ الحياة والدّينِ كمسألةِ البعثِ؛ فيومُ القيامةِ هو يوم الفصلِ في كلّ أمرٍ ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ يبيّنُ لهم ما اختلفُوا فيهِ ليستيقنَ الكفّار بأنّهم كانوا كاذبينَ على أنفُسهم حينَ ردُّوا الحقائقَ الواضحة التي نطقت بها الرّسل وبيّنتها؛ ومعنى حكايةِ علمهم هذا بيانُ أنّهم سيندمون، يقُول القُطب: "وعلى كلّ حالٍ البعثُ مقتضى الحكمةِ، لأنّ به تمييزالمحقّ من المبطلِ؛

وجزاء كلّ بما يســتحقُّه؛ فالبعثُ من تو ابع التّكليف"[٨] ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَـيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ غايةُ ما في الأمرِ أننا إذا أردنا وقوعَ شـيءٍ فإننا نأمرهُ بالكينونةِ فيمتثلُ كائنًا مطيعًا لأمرِ الله، ومثّلَ بآمرٍ ومأمورٍ وقولٍ تقريبًا للنّاسِ بما يفهمون؛ ولا قول في الحقيقةِ و إنّما هي إرادةٌ أزليّةٌ لإيجاد شيءٍ فينشـأُ في حينِه بلا تكلّفٍ ولا تأخّرٍ، والشّيءُ قبل أن يوجد لا يُخاطبُ؛ و إنّما سـاغ خطابُ المعدوم تجوّزًا من بابِ تشـبيهِ بالموجودِ لأنّه حقيقةٌ معلومةٌ عند الله؛ وهي سـواءٌ عندهُ ما قبلَ وجودها وما بعدَ ذلكَ، والمراد إذا كان هذا شأننا مع الإيجادِ من العدمِ فكيفَ تُنكرون البعث وهو إعادةُ إيجادٍ!.

وفي سياقِ حكايةِ مكابرةِ أهلِ الشّركِ ناسبَ أن يقصَّ و اقعَ الفريق المقابلِ من المؤمنينَ وما كانوا يلقونه منهم: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ والمسـتضـعفُون الذينَ اضـطرُّوا باضـطهادِ المشـركينَ لهم في أموالِهم وأعراضِهم إلى مغادرةِ أوطانِهم من أجلِ إقامةِ دينِ الله ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَـنَةً﴾ وعد من الله أنّه سـيُمكّنُهم من العيشِ الآمنِ بالخيرِ والعافيةِ في الدّنيا قبل الآخرة؛ كما كان شـأن المهاجرينَ الأو ائل إلى الحبشـةِ والمدينة، والآيةُ وإن نزلت فيهم فهي عامّةٌ لمن كان هذا شـأنُه، والْمَباءَة منزلُ القوم ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ وثوابُ الآخرةِ أرفعُ فضـلاً و أبقى، والآخرةُ ما بعد الموتِ أو ما بعد البعثِ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لو كان النّاسُ يدرُون حقيقةَ ما يعدُهم الله بهِ، والمراد ما داموا لا يعلمون فهم لا يرونه أكبر، ويجوزُ تقديرُ جوابِ "لو" أي لآمنوا، أمّا إذا راعينا تناسـق الضّـمائرِ فيجوز أن نرجع الضّـمير للمهاجرينَ بعدِهم بشـرًا قد تضـعُف نفوس بعضِـهم عن الهجرةِ ﴿الَّذِينَ صَـبَرُوا﴾ أولئكَ المهاجرون في سـبيلِ الله كانوا أهل صـبرٍ على الشّـدائدِ الكثيرةِ؛ ومنها مفارقةُ الوطنِ وتركُ الأموالِ والممتلكاتِ ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وأولئك الذين يعتمدُون على الله وحدهُ مهما ضـاقت دونهم السّـبل، وحكى الصّـبر بالماضـي إيذانًا بانقضاء لازمه وهو الاضطهاد، وحكى التّوكّل بالمضارع لإفادةِ تجدّده منهم وتبيينًا لسببِ خروجِهم من المعضلاتِ.

ومن مزاعِم المشركينَ أنّهم اعترضُوا على كون الرّسُول من البشرِ وتصوّرُوه مَلكًا؛ فردَّ الله عليهم مخاطبًا نبيّهُ ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ لم نُرسـل في الأمم السّـابقةِ إلاَّ رجالاً من البشـر مثلكَ نأتيهم بالوحيِ كما نأتي بهِ إليكَ، والتفت من الغيبة إلى الخطابِ لنكتةِ إيناسِ الرّسُـول ﷺ، واستدلَّ بعضُ العلماءِ من الآيةِ أنّ النّبوة لا تكونُ إلاَّ في الرّجالِ؛ وليس ذلك إقصاءً للجنس الآخر و إنّما لما أودعه الله فيهم من دواعي تحمّلِ أعبائها؛ فهي تكليفٌ وتشـريف ﴿فَاسْـأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فاسـألُوا أيّها المشـركون مَن تثقُون فيهم بأنّهم أهلُ عرفانٍ بأحوالِ الأممِ السّـابقةِ يُخبرُوكم بحقيقةِ ذلك إذا كُنتُم تجهلُونه، واسـتعمل القرآن مصـطلح "أهل الذّكر" لبيانِ أهلِ العلمِ لأنّ الذّكر

[٨] المحمّد بن يوسف أطفيّش: تيسير التّفسير، مصدر سابق، ج٧، ص٤٥٠.

للمعلومات مظنّة بقاءِ العلمِ ؛ بل إن المذاكرة في المعلوماتِ سبيلٌ إلى مراجعتِها و إنمائها فصارَ بهذا أبلغ عبارةً، وهذهِ جملةٌ اعتراضيةٌ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ أرسلنا الرّسل بالحججِ الواضحةِ والكتب المتّحدةِ في أصولِ دعوتها، ولا يلزمُ أنّ لكلِّ رسُولٍ معجزات ورسالة و إنّما الحُكم على المجموع، والزّبر جمعُ زَبُورٍ وزُبُورٍ؛ وهو الكتابُ السّماويّ من زبرتُ أي كتبتُ ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ ولقد أنزلنا القرآن إليك أيّها الرّسُول ﷺ لتتلوه على النّاس كما أُنزلَ وتُفصّل لهم آدابه وأحكامه، وسمّيَ بالذّكرِ لأنّه يوقظُ موات القلوبِ من الغفلةِ، وذهب بعضٌ إلى معنى: أنّ القرآن مبيّنٌ لمجملِ ما نزل من الكتب السّماويّة السّابقة؛ فالإنزالان في الآية مختلفان ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ عسى أن يتأمّلُوا في شأنِه فيعرفوا الحقَّ الذي ذهلُوا عنه، والآيةُ دليلٌ على أنّ الرّسُول ﷺ بحسنِ بلاغه مبيّنٌ لمبهماتِ القرآنِ ومجملاته؛ فمع كونه نزل بلُغتِهم إلاّ أنّهم محتاجون إلى بيانِه ﷺ ولو في بعض آياته.

١٦. تهديد مقترفي السيئات، وخضوع الكون لله رب العالمين

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)﴾

ثمّ يرسلُ الله تهديدًا عامًّا للمشركينَ وغيرِهم ممّن آذوا الدّين الجديد ومسيرته؛ الذينَ دلّ استرسالُهم في العصيانِ بأنّهم آمنون ممّا خُوّفُوا به ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ هل ضمن مرتكبُو الآثامِ أنّ الله لا يأخُذهم بعذابِ الخسفِ فتبتلعهم الأرض؛ كما خسف الله قارون بدارِهِ؛ وأصل الخسف الذّهابُ بالشّيء، والاستفهامُ تعجيبٌ منهم وتوبيخٌ لهم، وفعلُ "مكرُوا" تضمّن معنى عملُوا؛ ويجوزُ تقديرُ محذوفٍ أي مكرُوا المَكَرَاتِ السّيّئاتِ؛ أو السّيّئاتِ بمعنى العقوباتِ بتقديرِ أفأمنَ السّيّئاتِ الذينَ مكرُوا ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أو يرسل عليهم عذابًا آخر لا يعلمون حقيقته ولا يدرون وقتَ حلوله بهم، والإتيانُ مجازٌ عن الحلول لأن المقصود أو يحل بهم العذاب، وعدم شعورِهم به قهرٌ لهم إذ هم لمنعتِهم يحتاطون للمدلهمّاتِ ومع ذلك لا ترد عنهم العذاب ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أو يهلكهم الله وهم مع التّنقّلاتِ والأسفارِ في السّياحةِ أو الأعمالِ، والتّقلّب مستعملٌ في مطلقِ التّحوّلِ حتّى في الحركةِ البسيطةِ؛ وظاهرُ الآية كقوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران ١٩٦] ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ وهم على كلِّ حالٍ لا يعجزون الله ليفلتُوا من قبضتِه وعذابه ﴿أَوْ

يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أو يسلّطُ الله عليهم عذابًا وهم يتوقّعون حلوله بهم برؤيةِ أماراته كتتابع الأمطارِ الغزيرةِ أو سوء الأوضاع الأمنيّةِ، والتّفعّل في (تخوف) يجوزُ حملُه على المبالغةِ وكأنّه قال: على اشتدادِ خوفٍ، وتخوّفَ المتعدّي في لُغةِ هذيلٍ معناه النّقص؛ أي يأخذهم شيئًا فشيئًا؛ وقد فسّر الآية بذلك بعض المفسرين ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وإنّ الله تعالى مع كلّ توعّده ذو رأفةٍ عظيمةٍ لا يُعاجلُ بالعذابِ؛ ورحيمٌ بإعطاءِ الفرصِ الكافيةِ وبتبيينِ ما حلَّ بالسّابقين للاعتبارِ، والصّيغتان للمبالغة.

ثمّ يخاطبُ الله الرّسُول ﷺ في الكفّارِ يؤنّبُهم لعدمِ تأمّلِهم في خلقه ممّا أدّى بهم إلى كُفران قدره ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ ألم ينظر أولئك الكفّار نظرةَ تأمّلٍ إلى مخلوقاتِ الله جميعها، والرُّؤية بصريّةٌ، والاستفهامُ للإنكارِ، وأبهمَ المقصود بالرّؤيةِ بـ"ما" و"شيءٍ" وبيّنهُ بقوله: ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ تميلُ ظلاله ذات اليمين وذات الشّمال علامةً على قدرة الله العجيبة في الخلقِ والإبداع، والمقصودُ عمومُ الجهاتِ حتّى الأمام والخلف و إنّما اختصرَ النّظم، والآيةُ لا يرادُ بها بأنّ لكلّ مخلوقٍ ظلّا و إنّما هي حُكمٌ على عمومِ آيةِ الظّل، وهو ظلّ تابعٌ لمسيرةِ الشّمسِ نهارًا والقمرِ ليلاً، والتّفيّؤ الميلُ من جانبٍ إلى جانب مِن فاءَ إذا رجعَ؛ وسُمّي الظّل فيئًا لأنّه يتّصفُ بذلك، وفي الآيةِ محسّنُ الطّباق بين اليمين والشمائل، و أفردَ ضمير "ظلالُه" وكلمة "اليمين" مراعاةً للفظِ "ما" لإرادةِ الجنس كما يُقال المشرق، وجمع "الشّمائل" مناسبةً للجمعِ في "سجّدًا" كما قد يُقال: المشارق؛ وهو تفنّنٌ [9] ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ حالةَ كونِ تلك المخلوقاتِ خاضعةً لله العظيمِ ذليلةً لجلالِه؛ والدّخور الصّغاروالذّل، وسجودُ الظّلّ استعارةٌ لهيئةِ التصاقِه بالأرضِ، ونُسب للحسنِ البصري قوله: "ظلُّك يسجُد لربّكَ و أنتَ لا تسجُد! بئس ما صنعتَ!" ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ وجميعُ مَن في الكونِ مِن الخلائق خاضعٌ لله وحدهُ، ولعلّ المقصود بالدّابةِ هنا جميعُ المخلوقات الحيّة بما فيهم العاجزة عن الحركةِ والعائمة في الماء والسّابحة في الفضاء، والمراد إذا كان شأن جميع المخلوقاتِ الخضوع فما بال الكفّارِ لا يخضعون؟ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ والملائكةُ خاضعةٌ كذلكَ، وهي داخلةٌ في العموم السّابق و إنّما خصّها بالذّكرِ تشريفًا وتكريمًا ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يقدّرون مقام الله ويخشونه، وذكرُ الفوقيّةِ مجازٌ عن علوّ المكانةِ، لأن الله منزه عن الفوقية المكانية، و إنما الآية كقول فرعون: (و إنا فوقهم قاهرون)، ففرعون يقصد فوقية المكانة لا المكان، وخوفُ الملائكةِ لله خوفُ إجلالٍ ومهابة لله لعلمهم بقدرته عليهم ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ويأتون بجميع ما أمرُوا به، وهنا موضعُ سجدةٍ متّفق عليهِ؛ ولعلّ حكمةَ السّجودِ فيهِ إظهارُ المؤمن نفسه بأنّه ضمن من مدحُوا بالخضوعِ من المخلوقاتِ.

---

[9] ينظر هذا التّعليل وغيره في تيسير التّفسير، مصدر سابق، ج٧، ص٤٦٠، وفي التّحرير والتّنوير، ج:١٤، ص:١٦٩.

١٧. التحذير من الشرك، والتذكير بالنعم وبكشف الضر

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)﴾

وبعد أن بيّن الله أنّ جميع ما في الكونِ منقادٌ لأمرِهِ أمرَ بأن يعبد وحدهُ ولا يُشرك به ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ وذكرُ قولِ الله من الرّسُول ﷺ فيهِ زيادة بيانٍ للمشركينَ بأنّ هذا الأمر وصيّةٌ منقولةٌ عن أمانةٍ، والنّهيُ عن اتّخاذِ الاثنينِ دلَّ بالاقتضاءِ على ما فوقَ الاثنينِ، وذهب صاحبُ التّحريرِ والتّنويرِ إلى أنَّ الآية تُشيرُ إلى شركٍ مخصوصٍ وهو شرك الذينَ اعتقدُوا أنّ في الكونِ إلهَ الخيرِ وإله الشّرّ[١٠]، وجاء لفظُ "اثنين" للتّأكيدِ ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ إنّ الإله المستحقّ للعبوديّةِ واحدٌ لا شريكَ له؛ وهذا المقطع تعليلٌ للنّهيِ السّابقِ، وأكّد وحدانيّة الإله بلفظ "واحد" ؛ ليظهرَ الكلامُ على حقيقته مدفوعًا عن أيّ مجازٍ ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ فخافوا الله وحدهُ ولا تلجأوا إلى غيرِهِ الذي لا ينفعُ ولا يضرُّ، والتفتَ من الغيبة إلى الخطاب لتقويةِ البلاغِ وشدِّ الانتباهِ إليهِ ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والله وحدهُ مالكٌ لجميعِ ما في السّموات والأرض من المخلوقاتِ المتنوّعةِ، والمرادُ أنّ الذي تعتقدُونه إلهًا هو في هذا العالم، وعليه فهو مخلُوقٌ لله؛ وهب أنّه إلهٌ ولا بُدَّ أن يكون له من يعبدُونه فأنّى يكونون وكلّ ما في هذا العالم لله! ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ ولله وحدهُ يكون التّعبّد الدّائم أي ما من معبُودٍ غيرهُ إلا وستنتهي عبادتُه بفناءٍ أو نحوِهِ ويبقى الدّينُ كلّه لله، والواصبُ اللازم الدّائم، والدّينُ يجوزُ حملهُ على الجزاءِ أو الدّيانةِ أو الطّاعة؛ من دانَ له إذا أطاعه، وفحوى كلّ ذلك واحدٌ؛ فباستحقاقه العبادة وحدهُ انفردَ بالجزاء، وطاعتُه إنّما تتحقّقُ باتّباعِ دينٍ شَرَعَهُ ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أفتخافون أيّها النّاسُ غير الله بعد أن علمتُم عن عظيمِ قدرهِ ما علمتُم؟ والاستفهامُ توبيخٌ وإنكارٌ لأن يكون ذلك أمرًا لائقًا.

ثمَّ يتّجهُ بالخطابِ إلى جميعِ الأمّةِ يذكّرُهم بالنّعمِ التي لم يكن مصدرُها إلاَّ الإله الواحد لعلّهم يُفردُونه بالعبادةِ ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ وليست ثمّةَ من نعمةٍ صغيرةٍ أو كبيرةٍ معلومةٍ أو مجهولةٍ محسوسةٍ أو معنويّةٍ إلاَّ وتكونُ من الله وحده ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ وعند زوالِ النّعمةِ وحلولِ الضّرِ لا تجدون أحدًا يستحقُّ أن يُلتجأ إليهِ سوى الله مصرّف النّعمِ كلّها، أي فلمَ لا تتذكّرُون الشّركاء حين الضّيقِ؟ وهلاَّ اعترفتُم بضعفهم وعجزِهم؟، وعبّرَ بالمسّ تصويرًا لضعفِ الإنسان حينَ يشرعُ في الدّعاءِ لأدنى إصابةٍ، و"تجأرُون" من الجؤارِ وهو رفعُ الصّوتِ ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا

---

[١٠] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص١٧١.

فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ غيرَ أنّه إذا رفعَ عنكم ما تشتكون منه إذا جماعةٌ منكم ينسون الله ويذكُرون غيرهُ، و"إذا" الأولى شرطيّةٌ أمّا الثّانيةُ ففجائيّةٌ؛ وفي هذا بعثُ المخاطبينَ إلى التّعجبِ من حالِ من يرجعُ إلى الشّرك سريعًا بعد زوالِ ضرّهِ بإخلاصِ الدّعاء، ولعلَّ هذا الإشراكَ ممّا يُغفلُ عنه فيقعُ فيهِ المشركُ وغيرُه ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ دع هؤلاءِ الكفّار على نكرانهم النّعمِ التي أكرمناهم بها، واللاّمُ للعاقبةِ تُبيّنُ ما آلَ إليهِ حالُهم بعدَ الإشراكِ ويجوزُ جعلُها للتّعليلِ تهكّمًا أو للتّهديد، ثمَّ يتّجهُ بالخطابِ إلى الكفّارِ: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ دوموا على التّمتّعِ فسوف تتبيّنُ لكم حقيقةُ ما ينتظرُكم، والأمرُ وصيغةُ التّسويفِ محمولان على التّوعّد الشّديد.

١٨. عتاب المشركين على أفعالهم الممقوتة

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)﴾

وفي سياقِ ذكرِ النّعمِ وتوعّدِ المشركينَ بيّنَ ضربًا من فعالِهم التي تعدُّ كفرًا بالمنعمِ تستحقُّ المعاتبة ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ ومن شأنِهم أنّهم كانوا يتّخذون للآلهةِ التي لا تعلمُ أنّهم يعبُدونها؛ جزءًا من الحرثِ والأنعام التي رزقها الله لهم؛ تقرّبًا إليها، وقيل: معنى لا يعلمون لا يجدون برهانًا ولا حجّةً على دعوى أنّها إلهٌ ومع ذلك يجعلون لها نصيبا من الرزق، وجاء "يجعلُون" مضارعًا لإفادةِ إصرارِهم ودوامِهم على الشّركِ. ثمّ يلتفتُ عن الغيبةِ إلى الخطابِ لنكتةِ توجيهِ التّهديد فيقول: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ وتالله سوف يسألُكم الله عن الآلهة التي عبدتمُوها مدّعينَ بأنّها أهلٌ للعبادة أو أنّ الله أمركم بعبادتها، وأكّد التّهديد بالقسم وأداة التّوكيدِ تغليظًا ولأنَّ المخاطبينَ منكرونَ للبعثِ، والقسمُ "تالله" يكثرورودُهُ فيما شأنه أن يستغرب منهُ، وسؤال الكافرِيوم القيامةِ توبيخٌ و إقامةٌ للحجّةِ عليهِ؛ والغرضُ من التّنبيهِ له الإشارةُ إلى المجازاةِ وعدالةِ الله فيها، ولم يقل: عمّا افتريتُم و إنما قال (تفترون) لإثباتِ تمكّنهم في الافتراءِ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ ومن شأنِ المشركين كذلك أنّهم يعتقدُون أنّ لله بناتٍ؛ ويريدُون بذلك الملائكة التي خلقها لعبادتِه؛ ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تقدّس الله وتنزّهَ عن ذلك؛ والجملةُ اعتراضيةٌ سيقت لتنزيهِ مقامِ الله؛ تضمّنت تعجّيبًا من حالِهم ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ويتّخذون لأنفُسهم ما يريدون؛ أي أحبّوا الذّكور لأنفسهم بينما نسبُوا إلى الله الإناث. ومشاكلةً لموضوعِ اتّخاذِ البناتِ قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ وإذا سمع أحدُهم خبرولادةِ بنتٍ له

انقلب حالُه كآبةً وغمًّا، وفي ذكرِ السّواد كنايةٌ عن ذلك؛ تقول العرب: اسودّ وجه فلان إذا لقي ما يكرهُ، ووجهُ هذهِ الكآبة الشّديدة أنّه لا يُحبُّ الأنثى أصلاً فيأتيهِ مَن يُبشّرُه بما يكرهُ، وأصلُ التّبشيرِ تغيّر البشرةِ من تأثيرٍ إيجابيٍّ أو سلبيٍّ، و"ظلّ" يُستعملُ بمعنى صارَوهو المراد هنا ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وهو منزعجٌ جدًّا من الوالدةِ والمولودةِ وكأنَّ أحدًا منهما ملكَ أمرنفسه ففرضه، والكظيمُ الممتلئ غيظًا؛ من الكظمِ وهو الإطباقُ على الشّيءِ، والقرآن يعدُّ هذا الخُلُق من مخلّفاتِ الجاهليّةِ و إنّنا لنجدُ له بقيّةً في شتّى العصورِوبمختلِف الأنماطِ ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ وبعد سماعه الخبر يختفي عن خُلطائه درءًا للعارِ الذي قد يلحقُه منهم؛ يرى إلى هبةِ الله كأنّها بليّةٌ نزلت عليه؛ واستعمل "ما" ليُصوّرَ سوءَ رُؤيتِه للأنثى وكأنّها من غيرِ العقلاء، والتّواري الاستتارُمشتقٌّ من الوراء. وفي تلك الحالِ تفكّر نفسه متردّدةً بينَ أمرين: ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أيبقي على تلك الأنثى متحمّلاً العار؛ أم يدفنُها حيّةً حفاظًا على كرامةِ نفسه بينَ النّاسِ[11]، وإذا اشتدّت كراهتُه للبنتِ وأمسكها فالمرادُ هو متحمّلٌ للهوانِ و إنّما سيُوقعه على تلك البريئةِ؛ وهي حالٌ و اقعةٌ مؤسفةٌ، والهون الذّلّ والمهانة، والتّعبيرُبالدّسّ دون الوضعِ أو الدّفنِ مشعرٌبتلكَ المهانةِ، وقيل: كانوا يخوّفون بعضهم فيها من عارِ الزّنى والفقرِوبوارِها عندَ أهلها وغيرذلك؛ فيتخلّصون منها قبل كبرها؛ بخلافِ الذّكرِ فيظهرُكأنّه مالكٌ زمامَ أمره، وتطهيرًا لهذهِ الخصالِ الذّميمةِ جاءت تعاليمُ نبويّةٌ عديدةٌ توصي بالبناتِ خيرًا.

ومن لطيفِ السّياقِ أنّه ذكر جعلهم نصيبًا ممّا رزقُوا للآلهة ثمَّ ذكرَتخوّفهم من عارِ الفقر الذي تسبّبه الأنثى، ممّا دلَّ على أنّهم عدّوها أخسَّ من الأصنام وأحقر. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ألاَ ساء حُكمهم في الأنثى بهذا؛ وعبّربالجمعِ (يحكمون) مع أنّ السّياقَ سبق بالإفرادِ (يمسكه) تلويحًا بتواطئهم على هذا الأمرِ الفظيعِ، وليت شعري ألم ينشأ كلٌّ منهم من أنثى؟ ألم يدركوا أنّ بقاءهم متوقّفٌ على بقاءِ الجنسينِ معًا؟ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ هؤلاءِ المشركون الجاحدون للحياةِ الأخرويّةِ الذين وصلُوا إلى هذهِ الدّرجةِ من الانحرافِ العقليّ والسّلوكيّ هم نموذجُ السّوءِ، والمثل الحال العجيبةُ، أو المرادُ بالسّوءِ النّقص كصفة العجزوالبخلِ والفقر﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ والله له المثل الكامل الأوفى في القدرِوالرّفعة؛ فلا يُوصف بالولدِ لأنّه غيرمحتاجٍ؛ فضلاً عن أن يُنسب له جنسٌ مع كراهتِه، وحذفَ المفضّل عليه لقصد العموم فهو أعلى من كلّ شيءٍ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهو صاحب العزّةِ المطلقةِ في كونه، ذو الحكمةِ البالغة حين خلق الذّكروالأنثى ووهب منهما لمن شاء.

---

[11] يظهرُ أنّ دفنَ الجاهليّين للبناتِ وهنّ على قيدِ الحياةِ لم يكن أمرًا مطّردًا؛ بل كانوا يقتلُونهنَّ بشتّى الطّرقِ ثمَّ يدفنونهنّ؛ يقُول القُطب: "ولَمّا كان كلٌّ من ذلك يُفضي إلى الدّفنِ في التّرابِ عبّرَ بالدّسِّ في التّرابِ". المحمّد بن يوسف أطفيّش: تيسير التّفسير، مصدر سابق، ج٨، ص١٤.

١٩. سعة رحمة الله، وعاقبة اتباع الشيطان و إنزال القرن لهداية الناس

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)﴾

وفي خضمّ الحديثِ عن ظلمِ المشركين لبناتهم البريئاتِ يبيّن الله سنّته في الإمهالِ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ ولو أنّ الله يكافئ العصاةَ في الدّنيا على أفعالِهم بمجرّدِ ارتكابِهم لها، والمؤاخذةُ من الأخذِ وهو إلحاقُ الضّرّ الذي شاءهُ بهم؛ وصوغُه على المفاعلة (يؤاخذ) للمبالغةِ في شدّته، والمراد بالنّاس في الآية عموم الأحياء من بني آدم، والظّلم جامعٌ للشرك والعصيان مادام أنّ كليهما لا يُرضي الله فيقتضي المؤاخذة ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ لم يُبق على وجهِ الأرضِ من كائنٍ حيٍّ، فيأخذ الإنسان بسببِ عصيانه ويأخذ باقي الدّوابّ التي خلقت من أجله؛ و اندرج في الدّوابّ كلّ مخلوقٍ يعيش في الأرض حتّى الجنّ، و"عليها" أي الأرض وإن لم يسبق لها ذكرٌ؛ وهو استخدامٌ بديعٌ واردٌ في لغةِ العربِ، وهل الصّالحون ظالمون لأنفسهم بناءً على ظاهرِ الآيةِ؟ نعم ولكن ظُلمهم نسبيٌّ وراءهُ توبةٌ والله قد رحمهم بهذا ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ غير أنّ سنّة الله وحكمته قضت بتأخيرِ المجازاة إلى أجلٍ قدّرهُ بحلولِ ساعةِ الموتِ، والأرجحُ أنّ القبر أولى محطّاتِ الآخرة، أو الأجل قيام السّاعة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فإذا حلّت ساعة أجلهم لا يؤخّرهم الله عنها لحظةً إشفاقًا عليهم كما لا يقدّم ساعة أجلِهم تعجيلاً بعقُوبتهم، وهنا سؤال: كيف قال: فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون مع أن تقديمُ الأجلِ بعد مجيئِه مستحيلٌ عقلاً؟؛ والجواب: أنه أراد بمجيئه قربَه؛ أو أنّه أكّدَ به نفي التّأخّر ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ تأكيدٌ لما سبقَ من نسبِهم البناتِ إلى الله؛ بزيادةِ تصريحٍ بكرههم لهنَّ مبالغةً في التّقريعِ والتّوبيخِ، وعدَّ بعضُ المفسرين الآية عامّةً لأمورٍ أخرى يكرهونها لأنفُسهم قد جعلُوها لله كتقديم أسوأ النّفقة لله ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ ومع كلّ تلكم التّجاوزاتِ يدّعون بأنّهم أهل العاقبةِ الحسنةِ لا مكروه ينتظرُهم؛ أي أنّهم أهلُ الجنّةِ على فرضِ ثبوتِ هذهِ الجنّةِ في نظرِهم؛ وفسّرنا "الحسنى" بالجنّة لمقابلتِها بذكرِ النّارِ الآتي، وقولُه "تصفُ" فيه تصويرٌ لتبجّحهم بهذا؛ وسمّى قولهم بذاتِ الكذبِ كما لم يكتفِ بوصفِهم بالتّكلّمِ فأضاف ذكر أداته (ألسنتهم)؛ مبالغةً في إثباتِ الكذبِ لهم. ويفنّدُ الله زعمهم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ حقًّا وجبت عليهم النّار التي يكفُرون بها، وتركيبُ "لا جرم" يفيد معنى الإيجابِ والتّأكيد لما بعدهُ بعد إبطالِ ما

سبقه ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ وأنّهم مدفوعون إليها ومقدّمون إلى عذابِها؛ و"مُفرطُون" من الفرَط وهو السّبق إلى الماء؛ أو النّسيانِ أي منسيون في النّارِ، وفي قراءة ورشٍ ﴿مُفْرِطُونَ﴾ بمعنى مسرفُون في المعاصي.

ثمّ يذكر الله أحوال الأمم السّابقة مع رسلهم تسلية للرّسُول ﷺ ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ولقد أرسل الله رُسلاً إلى أقوام قبلك يا مُحمّد ﷺ، و"تالله" قسمٌ لتقويةِ التّأكيدِ استرعاءً للاهتمامِ بمضمونِ الكلامِ الذي قد يبدُو معلومًا بيّنًا؛ فهو عجيبٌ من حيثُ فلاحُ الشّيطان في إغواء أكثرِهم ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فكان الشّيطانُ لتلك الأقوامِ بالمرصاد إذ زيّن لهم قبائح أعمالِهم فلم يقبلُوا الحقّ الذي جاءت به رسلهم، والأعمال المزيّنة كنايةٌ عن الآثام ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالشّيطانُ هو القائمُ في الدّنيا على توجيههم إلى الباطلِ، وفي الآخرةِ ينتظرُهم العذاب المؤلم الذي لا يُطيقونه، وإذا فُسّر اليوم بأنّه الآخرة فهو تهكّمٌ بهم؛ إذ الوليُّ من شأنه أن يقومَ بأمرِ من تولاهُ والشّيطان قد تبرّأَ منهم؛ وما زادَ التّهكّم فظاعةً أنّه هو وليُّهم لا وليَ لهم غيرهُ.

ولإتمام هدايةِ الله للخلقِ وكشفِ ضلالاتِ الأمم السّابقةِ وشبههم نزل القرآن ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وغايةُ الحكمةِ من إنزالِ القرآنِ هو أن تبيّن أيّها الرّسُول ﷺ للنّاسِ الأسباب التي دعتهُم إلى الاختلافِ في شتّى الأصولِ التي ينبغي أن يتّحدُوا فيها كالتّوحيدِ لتقُوم الحجّة عليهم، وعبّر بالاختلاف عن عموم الانحراف لأنّه سببهُ، والقصرُ في الآيةِ ادّعائيّ، أي ادعى أن إنزال الكتاب منحصرٌ في بيان ما اختلفوا فيه، والغرض منه هنا التّرغيبِ في هذه الكتاب والحث على النظر فيه والأخذ به إذ فيه ما يرفع الخلاف ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا القرآنُ قد أنزلناهُ إليك ليكون لمن آمن به سببًا للهدايةِ والرّحمةِ، وخصّهم بالذّكرِ لأنّهم هم المنتفعون به، وجعلهُ ذات الهدى والرّحمةِ مبالغةً.

٢٠. من نعم الله تعالى على خلقه

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)﴾

وفي خضمِّ الحديثِ عن المشركين وكبائرِهم يعرّفُ الله بنفسه ليتبيّنَ مقامه فيخشاهُ النّاس ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الله هو الذي أنزل الغيث من السّماءِ بحكمتِه وقدرته، واستفتح باسمِ الجلالةِ وأظهرهُ تنويهًا بانفراده بالإنزالِ وتمكّنه منه، وقد ذكر إنزال الماء في أول السورة استدلالاً على قدرته سبحانه، وذكره هنا بياناً لامتنانه به ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فجعله سببًا لإحياءِ الأرضِ بالزّروعِ والعمرانِ بعدما كانت قاحلة لا حياةَ فيها، ووصفُها بالموتِ مبالغةٌ في تصويرِ يبوسها، وفاءُ التّعقيبِ نبّهت إلى سرعةِ بعثِ الحياةِ فيها مقابلةً لشدّةِ يبوسها ليظهرَ من ذلك بديع قدرته تعالى في الإحياء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ إنّ في إنزالِ الماءِ وإحياءِ الأرضِ لدلالةً عظيمةً على البعثِ وكمالِ قدرةِ الله؛ لقوم يسمعون المواعظ فينتفعون بها، وهذه الآيات وإن كانت بصريّةً فقد عبّر بالسّمعِ لأنَّ الرّسُول ﷺ كان يجتهدُ في تذكيرِهم بها؛ فدُعوا إلى السّماعِ الحقيقيّ أوّلاً ليتسنّى لهم الإبصار الحقيقيّ.

وبحياةِ الأرضِ تحيا المخلُوقاتُ فيها ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ وإنّ في أصنافِ الإبلِ والبقرِ والضّأن والمعزِ لعظةً لكم أيّها النّاس إذا تأملتُم في منافعها وسبُل تسخيرِها، وأصلُ العبرةِ من العبورِ لأنّها تنقُل من الجهلِ بحكمةِ الشّيءِ إلى العلمِ بها، وبيّنَ مبهم العبرةِ بقوله: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ يُسقيكم الله من بعضِ ما حوته بطونُ تلكَ الأنعامِ، وذكّرَ ضمير "بُطونِه" لاعتبارِ لفظِ "الأنعام"؛ وأُنّث في سورةِ المؤمنون "بطونها" باعتبارِ المعنى، وفي الآية إبهامٌ بيّنهُ بقوله: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا﴾ من بينِ إفرازِ الفرثِ و إفرازِ الدّمِ الخبيثين النّاشئين عن الغذاء الذي تمَّ هضمُه تتأتّى إفرازاتُ اللّبنِ، والفرثُ وسخُ الكرش، و"بين" ليست بيانًا لموضعٍ و إنّما هي مجازٌ عن أحوالِ عمليّةِ الهضمِ واستفادةِ الجسمِ من الغذاء؛ وفي هذا لطيفُ خلقِ الله للطّيّبِ من محلّ الخبثِ، والعبرةُ المستفادة من الآية أنّه قد يُخرج الله من الوسطِ العكر صالحِين إذا صدقُوا ﴿خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ صافيًا مستساغًا للشّربِ بصفائهِ، والسّائغُ الحلو الذي لا يغصُّ في الحلق، والوصفان إحاطةٌ بديعةٌ لما اشتمل عليهِ اللّبنُ واختصّ به؛ فالدّمُ والفرثُ وغيرُهما ممّا يُفرزُه جسمُ الحيوانِ مفتقدٌ لذلك.

و إتمامًا لذكرِ نعمةِ السّقي يقُول: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ وممّا تحصّلُونه من ثمارِ النّخيلِ والأعنابِ يسّرَ الله لكم استخلاصَ السّكرِ؛ وهو الخمرُ امتنَّ بها قبل أن تُحرّم، أي الآية نزلت قبل تحريمها، و"منهُ" توكيدٌ لفظيٌّ لِمنْ السّابقة، وفُسّر السّكر بالخلّ لسماعه في إحدى لغاتِ العربِ؛ وقيل أيضًا: هو من السَّكَرِ بمعنى ما يُسدُّ به الجوع ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ وهو الخلّ -إن لم يفسّر به السّكر- والزّبيب ونحو ذلك من طيّبِ ما يتّخذُ من التّمرِ والعنب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إنّ فيما ذكرَ لآية عظيمة دلّت على إبداع الله وصنعه؛ ينتفعُ بها أولو العقولِ السّليمةِ المفكّرةِ، وناسبَ ذكرُ العقلِ بعدَ ذكرِ السّكرِ تنبيهًا إلى العنايةِ التي أولاها له الإسلام؛ ولأنّ العبر إنّما تستلهم من العقول.

وبعدَ جملةٍ من الآياتِ يأتي إلى آيةِ النّحلِ التي سـمّيت بها السّـورة يفتتحها بمطلعٍ بديعٍ ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ ولقد جعلَ ربّكَ للنّحلِ طريقةً تسـيرُوفقها علّمها إيّاها، ووحيُ الله لغيرِ العقلاءِ إلهامٌ، والنّحل اسـمُ جمعٍ مفردُه نحلة؛ ولعلّ ذكرها بالجمعِ تلويحٌ بطبيعةِ عيشـها الجماعيّ ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّـجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُـونَ﴾ هدى الله النّحل لأن تتخذ بيوتها من الجبالِ والأشـجارِ والأبنيةِ المختلفةِ، وفيها تصـنع الأشـكال السّـداسـيّة البديعة كقاعدة حصـينة لعملها، و اتّخاذُها للبيوت أوّل محطّةٍ لنشـاطها، والملاحظُ أنّ الجبال والشّـجر والعروش أماكنُ عاليةٌ تسـاعدُ على حفظ منتوجها، و"من" في المواضع الثلاثةِ بمعنى "في"؛ وتكرّر العطفِ بها لتدلّ على المغايرةِ في الاتّخاذِ، و"يعرشُـون" من العرش وهو الهيكلُ المرتفع ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ثمَّ هداها الله للأكل من كلّ صـنوفِ الثّمارِ التي تجدُها باختلافِ أصـنافها و أنواعها وأشـكالِها؛ والعجيبُ البديع هو خلوص ذلك إلى عسـلٍ حلوٍ كلّه، والثّمراتُ مجازٌ لأنّ أغلبَ أكلها ممّا يؤولُ إلى ثمارٍ، وعموم الآيةِ (كل) محمولٌ على ما تجدُه وعلى ما تشـتهيه ممّا تجدُه ﴿فَاسْـلُكِي سُـبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ وهدى الله النّحل لسـلُوكِ شـتّى الطّرق المسـخّرة الآمنة للذّهابِ والإيابِ، والذّلل جمع ذلولٍ وهو المسخّر، كما فسّر "اسلكي" بأنّه توجيهٌ للنّحلِ في الثّمراتِ بأن تلجَ طرقَ الغذاء في جسـدِ النّحلةِ، وإضـافةُ السّـبل إلى الله تنبيهٌ لدقّةِ مسـارِ هذهِ العمليّةِ بحيثُ لو خرجت عن نظام مَن أبدعها لما أنتجت عسـلاً ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَـرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ يُخرجُ الله بقدرته من جوفِ النّحلِ عسـلاً تختلفُ ألوانُه بينَ أصـفرَ فاتحٍ وبنّيٍ ومنصـرفٍ إلى الاحمرارِ وأسـود، ولَمّا كانت هذه الحشرةُ صغيرةً بالنّظرِ إلى كمّيةِ إنتاجها ناسبَ أن يُعبّر بالمضارع للتّنويه بنشاطها الدّؤوب في ذلكم الإخراج ﴿فِيهِ شِـفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ في تناوله شـفاءٌ للنّاسِ من مختلِف الأسـقامِ، وتنكير "شـفاءٌ" للتّعظيم، والتّعبيرُ القرآنيُّ دقيقٌ فلم يقل لكلّ النّاسِ لأنّ بعضَ الأحوالِ يُمنعُ فيها العسـل؛ كما لم يقل للمؤمنينَ فالكافرُوغيرُه في الاسـتفادةِ من النّعمةِ سـواءٌ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إنّ في نظامِ مجتمعِ النّحل ما يدعو المتأمّلينَ إلى التّأمّلِ والاعتبارِ، ولفظُ "قوم" دلّ على أنّ هذا التّفكّر متمكّنٌ فيهم حتّى صار من خصائص قوميّتهم.

٢١. مظاهر قدرة الله تعالى في خلق الإنسان، وذم المشركين على التكذيب به

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَـيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا

لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤)﴾

وفي سياقِ دعوةِ المشركين إلى توحيدِ الله وعبادته يذكُر أسباب استحقاقه للعبوديّة؛ منها أنّه يخلق ويميتُ بلا استشارة أحدٍ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ والله هو الذي أخرجكُم إلى هذهِ الحياةِ الدّنيا بعدَ أن أبدعَ خلقَكم في بطونِ أمّهاتكم، وهو الذي سيتوفّاكم إذا انقضت آجالُكم، و افتتاحُ الآيةِ باسمِ الجلالةِ مع إظهارِه لتعظيم مقامه وللدّلالةِ على انفرادِه بالفعل ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وبعضٌ منكم سيتقدّمُ به العمر ليشهدَ أسوأَ مراحله وهي مرحلةُ الهرم مع الخَرَف، وقدّمَ ذكر التّوفي لأنّه الحال الغالب وبلوغ أرذلِ العمرِ قليلٌ، والأرذل تفضيلٌ في الرّذالة، وأرذل العمر أخسه وأسوؤه بالضعف والهرم ، والعُمر مشتقٌّ من الإعمارِ وهو مدّة البقاءِ على قيدِ الحياةِ، ووصفَ هذهِ المرحلة بالأرذلِ لأنّ الكبير فيها يُستثقل ولأنّها تُطلُّ على الموتِ مباشرةً ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ يعمّرُه الله ليعودَ إلى الأصلِ الذي انطلقَ منهُ وهو عدمُ علمِ شيءٍ إطلاقًا، ولعلَّ النّفي هنا مؤوّلٌ بنسيانه للأشياءِ التي كان يعلمُها شيئًا فشيئًا وعدمِ اكتسابه علمًا جديدًا ولا يلزمُ أنّه يُمحى كلَّ شيءٍ، واللاّمُ وكي للتّعليلِ مستعملانِ في بيانِ العاقبةِ غيرِ المرغوبةِ تعريضًا بمن يتمنّى طولَ العمر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ والله عالمٌ بكلِّ أحوالكم وما ستصيرُون إليهِ، وكما قدرَ على إعادتكم إلى أصل طفولتكم يستطيعُ إعادتكم بعدَ موتكم، والصّيغتانِ للمبالغةِ؛ والجمعُ بين العليم والقدير جمعٌ بينَ خطّةِ التّدبيرِ واستراتيجيّة التّنفيذِ ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ والله أرادَ أن يجعل بينكم تفاوتًا في مراتِب رزقه الدّنيويّة؛ فمنكم الغنيّ والفقير والقويّ والضّعيف والذّكيّ والغبيّ وغير ذلك، وذكرُ التّفضيل في الرّزقِ تضمّن التّذكير بذاتِ الرّزقِ ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ فليسَ الذينَ أوتوا الرّزق الوفير مقدّمينَ لمماليكهم شطرًا ممّا فضّلهم الله بهِ عليهم ليكونوا معهم في مرتبةٍ واحدةٍ، وما ملكت الأيمان كنايةٌ عن العبيدِ؛ وعبّر بالأيمانِ إذ باليمينِ يتمُّ القبضُ عادةً، والرّدُّ يَرِدُ بمعنى الإعطاء؛ وهو هنا إعطاءُ مشاطرةٍ، والمراد إن لم يرضوا بمشاركةِ عبيدِهم لهم في ملكهم فكيفَ يجعلُون عبادي وخلقي شركاءَ لي؟ ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أيكفرون بنعم الله الظّاهرةِ لهم بعدَ بيانِ تفضّلِ الله عليهم بها؟ والاستفهامُ للتّوبيخ والتّعجيبِ من حالِهم، والجحودُ أرقى مراتبِ الإنكارِ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ والله هو الذي خلقَ لكم من مثلِ جنسكم نساءً ترتاحونَ إليهنّ وتتودّدون لهنَّ، ومعنى "من أنفسكم" من نوعكم، وفي الآيةِ دليلٌ على عدمِ صحّةِ زواجِ الإنسيّ إلاَّ من الإنسيّ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ والله هو من هيّأَ لكم من أزواجكم أبناءً ذكورًا و إناثًا؛ ومن الأبناءِ وهبَ لكم أحفادًا بنينَ وبناتٍ، وذكرَ البنينَ فقط من بابِ التّغليبِ، والجمعُ بينَ ذكر الأزواجِ والذّرّية تلويحٌ بالغرضِ من الزّواجِ؛ وتنبيهٌ إلى الهرمِ الأسريّ الذي هو في مجموعه آيةٌ خلقها الله؛ ونعمةٌ

كرَّم بها الإنسان بوجهٍ أخصَّ ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وفتحَ عليكم من خزائنِ رزقِه الخيراتِ الكثيرة، و"الطّيّبات" صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ؛ والتقدير: المطعومات الطيبات، ومن اللاّفتِ ذكرُ الرّزقِ بعدَ الأزواجِ والأبناء تصحيحًا لما شاع من أنّهم سببٌ للضّيقِ المادّيّ ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أبعدَ كلّ ما سخّر الله للنّاسِ يصدّقون بالمعبوداتِ الباطلةِ من دونِ الله ويُكذّبون دلائل الله الصّريحة على عظمته وقدرته! والاستفهام توبيخيٌّ تعجبيٌّ، وأكّد كفرهم بنعمته بضميرِ الفصلِ (هم) لأنّه أخفى من إيمانهم بالباطِل. وممّا يُتعجّبُ من أولئكَ الكافرينَ أيضًا أنّهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ يجعلُون العبوديّة لمن ليست له قدرةٌ على أن يرزقهم شيئًا من السّماءِ كالغيث ولا من الأرضِ كالزّروع، وذكر السّماواتِ بالجمعِ للمبالغةِ، وفي "شيئًا" تحقيرٌ وتقليلٌ، والآيةُ زادت بيانًا لما قبلها بمعنى أنّهم بعبادتهم غير الله كفرُوا بنعمِ الله التي لم تُعطَ لهم إلاّ ليعبُدوهُ وحدهُ بها، وجاءت أفعالُهم هذهِ بالمضارعِ تنبيهًا على تجدّدها ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يتأتّى لمعبوداتِهم أن يملكوا نفعهم ولو أرادُوا لأنّهم عاجزون عجزًا مطلقًا عن ذلك، وحذفَ مفعول "يستطيعون" لقصدِ التّعميم. وبما أنّ الأمر على هذا النّحوِ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ فإيّاكم أيّها النّاس وجعلَ الشّركاءِ لله معتقدينَ بأنّهم مثل الله في صفةٍ أو فعلٍ، وذكرَ الأمثال بالجمعِ لتشنيعهم حيثُ جعلُوا أمثالاً كثيرةً لله الذي لا يجوزُ أن يُشركَ به ولو في واحدٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ واستيقنوا أنّ الله يعلم ما تعتقدونه وما تقولونه في حقّه، وفي هذا الإعلام المؤكّدِ تحذيرٌ وتخويفٌ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ و أنتم لا تعلمون عاقبةَ ما ينتظرُكم علمًا يقينيًّا يجعلُكم ترتدعون عن الشّرك والعصيان، وفي تقريرِ عدمِ علمهم تنبيهٌ إلى أنّ الذي حملهم على الشّركِ هو الجهلُ، وفي الآيةِ طباقُ السّلبِ بين "يعلم" و"لا تعلمون".

٢٢. ضرب الأمثال الموصلة إلى توحيد الله تعالى

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)﴾

ولمزيدِ بيانٍ لفسادِ عقيدةِ المشركينَ عرض الله مثلين؛ أوّلُهما: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ ضرب الله مثلاً لعبدٍ أمْرُه عند سيّدِه لا يتمتّعُ بحرّيةٍ في فعلِ ما أراد، وفي "مملوكًا" إمعانٌ في

وصــفه بفقدانِ الحرّيّةِ، وكونه لا يقدرُعلى شــيءٍ تمثيلٌ بأســوأ أحوالِ العبيدِ كأن يكون شــيخًا عليلاً أصمَّ، وتلكَ صورةٌ تشبيهيّةٌ لمعبُوداتِهم ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ هل يكونُ ذلك العبدُ مثلَ حرٍّصاحب سعةٍ في الرّزقِ يُنفقُ ممّا آتاهُ الله في السّرِوالإعلان؟ وفي الآيةِ نكتةٌ دقيقةٌ في بيان أنّ الرّزق إنّما أوتيَ ليُنفقَ؛ وأنّ من شــيمِ الأحرارِخُلقَ الإنفاقِ، وأنَّ إحســان الله بالرّزقِ الطّيّبِ في أحوالٍ معلومةٍ وغيرِمعلومةٍ ينبغي أن يُقابل بالإنفاقِ في كلّ وجهٍ، ثمّ جاء الفعلُ مضارعًا ليُفيد التجدد والتكرار﴿هَلْ يَسْــتَوُونَ﴾ لا تســتوي الحالانِ أبدًا؛ والاســتفهامُ لنفيِ الاســتواء عند كلّ عاقلٍ، وكذلك حال الشّــركاء الضّــعفاءِ المملوكين مع الله الواحد الجبّارلا يســتوون معه بحالٍ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الثّناءُ الجميلُ كلّه لله لا لأحدٍ غيرهُ؛ والحمدُ له لبيانِه الحقَّ لنا ولو شــاءَ لما عرضَ حججهُ بهذَا التّفصــيلِ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ غيرَأنَّ أغلب المشــركينَ لا يعلمون قدرَالله فيجعلُون الشّــركاء له، ويردُ الأكثريرادُ به الكلّ؛ أويؤوّلُ بأنّ بعضًا منهم يعلمونَ فيكابرُون الحقَّ حفاظًا على مصالحَ قد تفوتُهم ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُعَلَى شَــيْءٍ﴾ وعرضَ الله مثلاً لبيانِ فســادِ عقيدةِ المشــركين برجلينِ؛ الأوّل أبكمُ لا يقــدرُعلى فهمٍ ولا إفهــامٍ، والأبكم العــاجزُعن الكلامِ طبيعــةً ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ وهو بتلك الحال متعبٌ لمن يلي أمرهُ أكثرممّا ينفعُه، والكَلُّ الثّقيل، وثقلُه ســبّبَ عدم نفعِه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ فبأيّ طريقةٍ طلبه مولاهُ وإلى أيّ سبيلٍ وجّههُ لا يقضي له حاجته ومبتغاه، والبُكم والعجزُوعدم النّفعِ صــفاتٌ تمثّلت في المعبُوداتِ من دونِ الله ﴿هَلْ يَسْــتَوِي هُوَوَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِــرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هل تستوي تلكم الحال مع حالِ النّاطقِ بالخيرِالمعتدل في شؤونه المستقيمِ في سلُوكه؟ فهما لا يســتويانِ أبدًا عندَ لبيبٍ، فكيفَ إذًا تدّعون أنّ معبوداتكم شــركاءُ لله مع ظهورِالفرقِ الكبيرِفي المثلِ المضــروبِ لكم، وغايرأســلوبُ هذا المثلِ ســابقه تفنّنًا و إيجازًا ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والله وحدهُ عالمٌ بما خفيَ من شــؤونِ السّماواتِ العظيمةِ والأرضِ الفسيحةِ، ومن ذلك قيامُ السّاعة وفناء الموجودات ﴿وَمَا أَمْرُ السَّــاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَــرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ وليسَ أمرُقيام السّــاعةِ ونهاية الدّنيا إلاَّ بمقدارِإغماضِ العينِ وفتحها أو أقلَّ من ذلك، وهذا تمثيلٌ لســرعةِ مجيئها وعدمِ الكلفةِ في ذلك؛ إذ أقلّ من مدّة حركةِ الجفنِ لا تصــلح في عرفِ الإنســانِ لقياسِ المشــقّة، والسّــاعةُ عَلَمٌ على حدثِ نهايةِ الدّنيا، والآيةُ من طريقِ الإيماءِ تحذيرٌلمن لا يزال ينكرُالبعث ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَــيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وعليكم أن تســتيقنُوا أيّها النّاس بأنَّ الله قادرٌعلى كلّ ما عجزت عُقولكم عن تصــوّرِه كإفناءِ الدّنيا؛ فهو صــاحب القدرةِ المطلقةِ.

٢٣. تبيان نعم الله تعالى على الإنسان، والتحذير من كفرانها

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)﴾

وحينَ انتهى إلى ذكرِ قيامِ السّاعةِ استدلَّ على الفناءِ بالتّذكيرِ بالمبدأ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ والله هو من هيّأ لكم الخروج من بطونِ أمّهاتِكم أيّها النّاسُ بعدَ أن أتمَّ خلقَكم فيها، والتّنويهُ بالإخراجِ تنويهٌ بالتّحوّل من مرحلةٍ إلى أخرى تختلفُ عن طبيعتها اختلافًا كلّيًا ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أخرجكم لا تعلمون شيئًا من شأنه أن يُكتسب بالتّعلّم؛ وكيفيّةُ رضاع الرّضيع ولجوؤه إلى البكاءِ وقتَ الحاجةِ ونحو ذلك ممّا فطرهُ الله عليه و أتقنه بعد الولادةِ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ وقد هيّأ لكم آلة الاستماعِ وآلة الإبصارِ وآلة الإدراكِ لتكتسبُوا المعارفَ والعلوم، والأفئدةُ جمعُ فؤاد وهو أمُّ القلبِ ومحطّةُ العقلِ، وقدّم السّمع لأنّه أوسع وسيلةٍ للاكتسابِ، وأخّر الأفئدة تقديمًا للظّاهرِ الذي هو أبينُ دلالة من الباطن، ولم يذكر اللّمس والذّوق والشّمّ استغناءً عن عظيمِ الدّلالةِ على معرفةِ الله بما هو أعظمُ، و أفردَ السّمع لأنّه يبدُو أجمع وسيلةٍ للتّلقي بخلافِ الإبصارِ والتّفكّرِ فلهما أحوالٌ متعدّدةٌ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وكلّ ذلك رجاء أن تعرفُوا قدر الله بما تتعلّمونه من العلمِ النّافع فتشكروه.

وحينَ ذكر وسائل اكتسابِ المعارفِ دعا إلى توظيفها ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ ألم يتأمّلوا في أنواعِ الطّيرِ المختلفةِ التي سهّل الله لها الطّيران في الآفاقِ، والاستفهام إنكارٌ لاعتبارِ أنّهم لم تنفعهم رُؤيتُهم ليُعظّموا الله، والطّير اسمُ جمعٍ لطائر، والجوّ ما فوقَ سطحِ الأرضِ من فضاءٍ؛ وأضيفَ إلى السّماءِ لأنّه يبدو أقربَ إلى طبيعتها، والآيةُ صالحة للاستشهادِ لعظمةِ الله في تسخيرِ شتّى وسائلِ الطّيرانِ المعاصرة للإنسان؛ كيف لا وقد تعلّمَ سبل تطويرِ طائراته بدراسةِ عالمِ الطّيورِ الطّبيعيّ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ لم يعصمهنّ من السّقوطِ إلاّ الله بما خلقَ لهنّ من أجنحةٍ وأذنابٍ ونظامٍ للتّحليقِ، ولعلّه من لُطف الله أن جعل لها سرعة التّنقّل في الجوّ حمايةً لها من دوابّ الأرضِ العظيمةِ والخطيرةِ تحقيقًا للتّوازنِ الطّبيعيّ؛ كما أنّه يُعدُّ تنويعًا في سبُلِ عيشِ المخلُوقاتِ على هذهِ البسيطةِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إنّ في تلكم المشاهدِ الكونيّةِ لدلائل عظيمة على قدرةِ الله ينتفعُ بها أهلُ الإيمانِ،

وتنوينُ "آياتٍ" للتّكثير، وأمّا تنوينُ "قوم" فللتّعظيمِ، وعبّر بالمضـارعِ عن إيمانهم لإفادةِ تجدّدِ موجبِه منهم.

وبعد ذكرِ إخراجِنا من بطونِ أمّهاتنا إلى معتركِ الحياةِ يعدُّ نعمهُ فيها علينا ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَـكَنًا﴾ والله هو الذي هيّأَ لكم الرّاحة والاسـتقرار مع أهليكم في بيوتكم التي تبنونها في المدنِ والأرياف، وليس المعنى أنّها لم تكن سكنًا فجعلها كذلك و إنّما ألهمَ الإنسان لبنائها بادئَ ذي بدءٍ من أجلِ السّكنِ؛ وذلك تنبيهٌ إلى حفظِ النّوعِ الإنسـانيّ وتكريمه بعد الإشـارةِ إلى خلقه إذ يبدو أحوجَ إلى الحمايةِ من غيرِه ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ وهو الذي يسّر لكم اتّخاذ بيوت صغيرة من جلودِ الإبلِ أو البقرِ أو الغنمِ أو المعزِ بنسـجِ قطعها إلى بعضٍ أو بتحويلِ موادها، وهذهِ البيوت عرفت في عرفِ العربِ بالخيمِ، وكرّر فعل الجعل مرّاتٍ تذكيرًا بمنّته في كلّ نعمةٍ ﴿تَسْـتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ تجدُونها خفيفةً للحملِ حينما تجدُّون في السّـفرِ ومن ثمَّ يتيسّـر لكم نصبُها في مكانِ الإقامةِ المؤقّتِ، واسـتخفَّ الشّـيءَ عدّهُ خفيفًا، والظّعن السّـفرُ والرحيل، واليومُ هنا بمعنى الحينِ والزّمان، وفي الآيةِ طباقٌ بينَ "ظعنِكم و إقامتكم" ﴿وَمِنْ أَصْـوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْـعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا﴾ كما أنّكم تتّخذون من أصـوافِ الغنمِ وأوبارِ الإبلِ وأشـعارِ المعزِ أكسـيةً وأغطيةً وفرشًـا، والأثاث الأدوات التي يعمرُبها البيت؛ من أثَّ الشّـيء إذا كثرَ، ويُقابله المتاع الذي يُنتفع به خارج البيتِ؛ مأخوذٌ من المتعِ وهو الذّهابُ بالشّـيءِ ﴿إِلَى حِينٍ﴾ ولكم فيها انتفاعٌ مدّةً إلى أن تبلى وتفنى، أو إلى حينِ موتكم ثمَّ تؤول إلى غيرِكم، وفي كلا التّأويلينِ تهذيبٌ لتعلّقِ الإنسانِ الشّديدِ بما يمتلكُه بأن يعلم أنّه زائلٌ عنهُ لا محالةَ.

ثمَّ يُفصّـلُ الله في نعمِه على من ترك بيته للتّنقّلِ والسّـفرِ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ والله هو الذي هيّأَ لكم من السّحبِ والأشجارِ وغيرِها ظلالاً تأوونَ إليها عند اشتدادِ الحرّ، ويجوزُ أن يعدَّ التّخفّي من البردِ والأمطارِ أيضًا استظلالا ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ وهو الذي هيّأَ لكم في الجبالِ المنيعةِ كهوفًا ومغاراتٍ تحتمونَ بها من الحرّ والبردِ والعدوّ، و"أكنانًا" جمع كِنٍّ مثل زرٍّ وأزرار؛ وكنَّ الشّـيءَ غطّاهُ؛ ومنهُ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الكهف ٥٧]، ويندرجُ في الجعلِ ما نحته الإنسـانُ بيدِه فهو من تسخير الله وتيسيرِه أيضًا، وذكر هذا في معرضِ النّعمِ لأنّ السّـورةَ جاءت شـاملةً لشـتّى النّعمِ؛ ولأنّ العرب كانوا أولي أسـفارٍ وحروبٍ يحتاجُون إليها؛ بل ولو بدون ذلك فقد أقام ﷺ في غارِ حراء خاليًا كما أنّه اختفى بغارِ ثورٍ مع صاحبه محتميًا ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ والله هو الذي أرشـدكم إلى اتّخاذِ ألبسـةٍ خفيفةٍ تقيكم حرَّ الصّـيفِ وألبسـةٍ دافئةٍ تردُّ عنكم برودةَ الشّـتاءِ، و اقتصـرَ على الحرّ إيجازًا لدلالةِ المقامِ على النّقيض، ولعلَّ المتبادر بأنَّ الألبسـة تقي البردَ غيرَ أنّ الآية نبّهت إلى العكسِ

ترسيخًا لمبدأ السّترِ[١٢]؛ أو يقال: الشّائع في بلادِ العربِ الحرّ فذكرهُ، و"السّرابيل" جمعُ سربالٍ وهي الألبسةُ ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ كما يسّر لكم صناعة أوقيةٍ حديديّةٍ وبلاستيكيّةٍ تحميكم من طعناتِ الرّماح والسّيوفِ ومختلِف المقذوفاتِ، وإضافةُ البأسِ لضميرِ الجمعِ على التّوزيعِ أي تقي بعضكم بأس بعضٍ ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ وكما هيّأَ لكم كلَّ تلك النّعم المادّية وبسطها يهديكم إلى نعمةِ الدّينِ رجاءَ أن تذعنوا له، أو نعمته هي جنسُ عمومِ النّعمِ الأخرى؛ و إتمامُها إدامتُها في شتّى الأحوال والأزمنة، وأضافَ النّعمة إلى نفسه تشريفًا لها. وتُسْلِمون: تنقادون لربوبيته فتوحدونه،

ثمّ يلتفتُ بالخطابِ إلى النّبيّ ﷺ مسلّيًا له بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وإذا ما أعرضوا عن دعوتكَ أيّها الرّسول ﷺ بعدَ كلِّ هذهِ الآياتِ فاستيقن أنّه ليسَ عليكَ إلاَّ التّبليغ الوافي البيّن دون حملِهم قسرًا على الإسلامِ. ويُتساءلُ كيفَ عميت بصائرُهم عن تلك الدّلائل مع وضوحها فتولّوا؛ فيأتي الجواب: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ هم مدركونَ لنعمِ الله و أنّه لا يقوى أحدٌ على تسخيرِها لهم، غيرَ أنّهم يتجاهلُون ذلكَ كبرًا، أو النّعمةُ هنا الدّين أي يعرفُون أنّك رسُول الله بظهورِ الدّلائل ثمَّ يكفرون بكَ وبرسالتِك، وبين يعرفُون وينكرون محسّنُ الطّباق ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وأغلبُ أولئك المكابرينَ من الكفّارِ لا من المسلمينَ المؤمنينَ، وتقديرُ معنى الكلام و أكثريّتُهم الكافرة تعرفُ نعمة الله ثمَّ تُنكرُها.

٢٤. جزاء الظالمين يوم القيامة، وشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على أمته

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾

وفي خضمّ ذكرِ النّعمِ ومقابلةِ الكفّارِ لها بالإنكارِ ينتقلُ إلى الحديثِ عن البعثِ والجزاء ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ واذكر أيّها الرّسُول ﷺ للنّاس يومَ الحشرِ الذي نُخرجُ فيهِ من كلِّ أمّةٍ رسُولها يشهدُ بأنّه قد بلّغ؛ وقيل: يشهدُ بأعمالِ من آمن و آثام من كفر، وبعثُه إظهارُه من بينِ أمّته، وذكرُ بعثِ شهيد من

[١٢] على أنّ الأطبّاء قد فصّلُوا في أضرارِ عدّةٍ يتعرض لها الإنسان والمرأةُ بالخصوص حينما تكونُ بعض المواضعِ الحسّاسةِ في الجسدِ معرّضةً لأشعّةِ الشّمسِ.

كل أمة ليومِ الجزاء تسـليةٌ لقلبه ممّا يلقاهُ من الأذى؛ وتخويفٌ لقلوبِ النّاسِ عسـى ترتدع عن الغيّ وذلكَ من البلاغِ المبينِ لهم ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وحينَها يودُّ الكفّار الاعتذار عمّا صـدرَ منهم أو الجواب لمن شـهدَ عليهم فلا يؤذنُ لهم، لأنّه لا عذر لهم يُقبل لكي يؤذن لهم فيه، وعدمُ الإذنِ شـاملٌ لكلِّ ما يمكن أن يسـألوا عنه كالرّجوع إلى الدّنيا، وعدمُ الإذنِ كنايةٌ عن الغضـبِ عليهم، والكلامُ منتظمٌ بـدونِ "ثم" و إنّمـا عطفَ بهـا لنكتـةِ أنّهم يبعثون على هولٍ حتّى إذا اسـتـأذنوا لا يؤذنُ لهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْـتَعْتَبُونَ﴾ ولا يطلبُ من الكفّار إرضـاء الله بعملٍ صـالحٍ ليزول غضـبُه عنهم، والعَتْبُ الغضـبُ والعقاب، والعُتبى الرّضـا بعدَ الغضـب، والاسـتعتابُ إزالةُ العتبِ، واسـتُعتِبَ فلانٌ أي طُلب منه أن يطلُبَ العتبى فإذا أعتبهُ الْمُسـتَعْتَبُ فقد رضي عنه ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ وإذا أبصرَ الذين ظلموا أنفسـهم بالكفرِ والمعاصـي عذاب النّارِ الذي ينتظرُهم، ووصـفهم بالظّلمِ تنبيهًا للسّـببِ الذي استحقُّوا به العذاب؛ كما أنّه قد سجّل عليهم الكفرَ والشّرك لزيادةِ تفظيعهم بأنواعِ جرائمهم، ورُؤيةُ الشّقيّ للعذابِ الأبديّ هي بدايةُ ذلكم العذابِ؛ ولذلك قال مباشرةً: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ فلا يخفّف عنهم شفقةً على مشاعرِهم ولا هم يؤخّرُون لإعادةِ النّظر في دُخولِهم.

ومن محطّاتِهم في المحشـرِ أنّه: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْـرَكُوا شُـرَكَاءَهُمْ﴾ إذا أبصـرَ المشـركون آلهتهم التي عبدُوها في الدّنيا من دونِ الله، وشـركاؤُهم الأصـنام أو الزّعماء أو أيُّ شـريكٍ قد يُجعلُ لله، فإذا رأوهم أشـارُوا إليهم منادينَ ربَّ الجلالة ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُـرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ﴾ ربّنا هؤلاءِ هم الشّـركاء الذينَ عبدناهم في الدّنيا تاركين بذلك عبادتك، والله هو الذي أظهرهم لهم بقدرته ليقيم الحجّة عليهم، وإشـارةُ الأشـقياء بعد النّداءِ توحي بتعجّبِهم من ظهورِهم؛ وكأنّهم طمعوا في شـيءٍ من الخلاصِ إذا ألقوا الأمر عليهم تنصّلاً أو بداعي الاعترافِ ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيردُّ عليهم الشّـركاء إنّكم كاذبون في ادّعائكم؛ فلم نأمركم بعبادتنا ولا ادّعينا بأنّا أهل للعبادةِ، والفاءُ للتّعقيبِ؛ كما أنّ إلقاء القولِ كنايةٌ عن الكلامِ بلا انتظارٍ؛ وفي "إليهم" معنى القصـدِ والتّوجيه أي موجهين الكلام لمن كان يعبدهم ويتخذهم شـريكا لله وهذه الآية تثبت أن آلهتهم ترد عليهم، بينما قوله تعالى في سـورة القصـص: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْـتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصـص ٦٤] ، يدل على أنها لا ترد عليهم، فكيف يجمع بينهما؟ والجواب: أن آية سـورة القصـص إنما هي في شـأنِ الشّـفاعةِ ودفعِ العذابِ، لم يجيبوا دعوتهم لهم بأن ينقذوهم من العذاب، وقيل: هذا كلّه من كلامِ المشـركين أي يقولون لآلهتهم: كذبتُمونا حين عبدناكم ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّـلَمَ﴾ وحينها أظهر المشـركون الاسـتسـلام والخضـوع لله يوم لا ينفعُ اسـتسـلامٌ ولا خضـوعٌ، وإعادةُ "ألقوا" يرجّحُ اختلاف فاعلِ الإلقاءِ ﴿وَضَـلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ولم يجدِ المشـركونَ منفعةً فيما علّقُوا به آمالهم في الدّنيا من الشّـركاءِ والشّـفعاءِ مدّعينَ باطلاً بأنّهم سينفعُونهم. ثمّ يخبرُ الله عن مآلهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ العبادُ الذينَ كذّبوا برسالتك

أيّها الرّسُول ﷺ و أبعدُوا غيرهم عن نهجِ الله المستقيم، وثبتت في السّيرةِ مو اقفُ عديدةٌ لكفّارِ مكّةَ وهم يبعدُون النّاس عن دعوةِ مُحمّدٍ ﷺ ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ يُعذّبهم الله عذابًا فوقَ العذابِ الذي أعدّهُ لغيرِهم، وذلك جزاء إفسادِهم في الأرضِ وصدّ النّاسِ عن الدّين، والآية دليلٌ على شدّةِ عقوبةِ الذين فتنوا النّاس عن دين الله بالإغراء أو بالتّسلّطِ، ومجيء الفعل مضارعًا لإفادةِ تجدّدِ الإفسادِ منهم وبتعبيرٍ آخر لإفادةِ إصرارِهم عليه.

ويتواصلُ الكلامُ في مو اقفِ اليومِ الآخرِ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ واذكر أيّها الرّسول ﷺ للنّاسِ يوم نخرجُ من كلّ أمّةٍ من أمم البشرِ شاهدًا على إيمانِ من آمن وكفرانِ من كفر، وشهيدُ الأمّةِ رسُولها؛ وقيل: والصّلحاء كذلك لأنّ الرّسل لا تعاصر كلّ من أرسلت فيهم، و"من أنفسهم" ممّن خالطَهم ولو لم يكن من سلالتهم؛ وذلك أدعى لإسقاطِ أيّ طعنٍ في الشّهادةِ، وكرّرَ مسألة بعثِ الشّهيد للدّلالة على أهمّية موقفها؛ وليبنيَ عليها: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ وحينها سنجعلُك أيّها الرّسُول ﷺ شهيدًا على قومك؛ و اقتصرت الإشارةُ فيمن عاصرهُ على سبيلِ تهديدِهم وهي عامّةٌ لكلّ أمّته، وعبّر عن مجيئه بالماضي تحقيقًا لمقامه في الشّهادةِ، ولم يقل "من أنفُسهم" لأنّ الإشارة إلى قومه أفادَت ذلك، والمتبادرُ أنّ الإشارة لقومه أي: شهيداً على قومه، ويجوزُ أن تعود إلى الشّهداءِ من كلّ أمّةٍ تنبيهًا على موقفه الأعظم بين الأمم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ولقد أنزلنا إليك القرآن لتوضيحِ كلّ أمرٍ من أمورِ الدّين أو الدّنيا احتاج إليهِ النّاس، وتِبيانٌ مصدرٌ دالٌ على المبالغةِ، و"كلّ شيءٍ" عمومٌ أريدَ بهِ ما يُعقلُ وجودُه ــ ولو بإجمالٍ ــ في القرآن ممّا تجيءُ من أجله الأديان السّماوية؛ كالأخلاقِ والحقوق والأحكام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ و أنزلنا إليك القرآن ليكون منهجًا يسيرُ عليهِ المسلمون ورحمةً ترفعُ عنهم الشّقاء والنّكد وتبشيرًا لهم بالجنةِ ورضوانِ الله إن هم استمسكوا بحبله؛ وفي هذا خلاصةُ كلّ شيءٍ عن حياةِ الإنسانِ ومصيرِه، وعدّ القرآن ذات الهدى والرّحمة والبشرى على سبيلِ المبالغةِ، وخصّ المسلمين بالذّكرِ لأنّهم هم المنتفعون به.

٢٥. دعوة إلى مكارم الأخلاق ونهي عن سيئها

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَ إِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)﴾

يقُولُ القُطب عن الآيةِ الآتيةِ "لو لم يكن في القرآنِ إلاّ هذهِ الآية لصدقَ أنّه تبيانٌ لكلّ شيءٍ"[١٣] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ إنّ الله يوصي عبادهُ بالعدلِ والإحسانِ في كلّ أمورِهم؛ مع الله بالإخلاصِ في عبادته والاجتهاد فيها؛ ومع النّفسِ بتزكيتها والحرص في إقامتها على الخير؛ ومع النّاسِ بكفِّ المظالِم عنهم وحسنِ التّعامل معهم، وقيل: العدلُ أداءُ الواجبِ مطلقًا والإحسان الزّيادةُ عليه، و افتتح الآية بالتّوكيد لشدِّ الانتباه إلى مضمونها، وصدّرها باسمه الجليل لنكتةِ التّشريفِ، وعدل عن الأمرِ الموجّهِ نحو: اعدلُوا؛ اجتنبُوا؛ للتّشويق ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ كما يوصي الله تعالى بإعطاءِ ذوي القربى حقوقهم، ولعلّ فائدة تخصيصهم بالذّكرِ مع أنّ حقَّهم يندرجُ ضمن الأمرِ بالإحسان؛ أنّ النّاس تستجيبُ لداعي الإحسانِ لكن تتسارعُ إلى الأباعدِ رغبةً في المحمدةِ؛ فذكرهم لأنّهم محلُّ الغفلةِ ولأنّ مصلحتهم أولى، والقرآنُ المكّيّ اهتمَّ بالأقربين كثيرًا حتّى إذا شرّعت في المدينة أحكام المواريث وجدت مرونة في التّنفيذِ ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ ويحذّرُالله عبادهُ من الآثامِ العظيمةِ؛ كالقذفِ والزّنى، وجميعِ الأعمالِ المنكرةِ صغيرِها وكبيرِها؛ كما يحذّرُهم من الاعتداءِ على حقوق الله وحقوق العبادِ، والفحشاء والمنكر اسمان لشيءٍ واحدٍ قبّحه الشّرع واستنفرهُ الطّبع، والبغي عموم التّعدّي على نفسٍ أو عرضٍ أو مالٍ؛ وهو من المنكرِ وخصّه بالذّكرِ لشناعته، وفي الآيةِ مقابلةٌ لطيفةٌ بينَ ثلاثة مأمورات وثلاثة منهيات ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يرشدُكم الله إلى تلك المبرّاتِ ويحذّركم من تلكم المساوئ رجاء أن تستحضرُوا أهمّية هذه الوصايا لتنتفعوا بها، ونسب إلى الحسنِ البصريّ قوله عن الآيةِ: "أمرت بكلّ خيرٍ ونهت عن كُلّ شرٍّ"[١٤] ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ والتزموا بالعهد إذا قطعتُموهُ كالعهد الذي أخذتموهُ لله بالطّاعةِ حينما كنتم في الأصلابِ أو حين نطقتم بجملةِ (لا إله إلاّ الله) أو حين قدّمتم أيّ عهدٍ لله في واجبٍ أو مندوبٍ، وعدّهُ عهدًا لله على سبيلِ التّشريفِ إذ قد يكون بينَ النّاسِ أيضًا ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ولا تبطلوا حلفكم التي أكّدتم القسمِ فيه بالله، وذلك بتكرار القسم بالله أو بصفاته أكثر من مرة عليها ، وعلى هذا لا يكونُ "بعد توكيدِها" قيدًا بل هو زيادةُ تحذيرٍ فتوفّى الأيمان ولو لم تؤكّد، وقيل معنى الآية: لا تبطلوا أيمانكم بعد حلفها؛ فيكون المقصود بالتوكيد نفس الحلف، والنّقضُ عكسُ الإبرام وهو فكُّ الشّيءِ أجزاءً، والتّأكيدُ والتّوكيدُ لُغتانِ وقيل الهمزُ بدلٌ عن الواوِ، و"بعدَ" هنا أقربُ إلى معنى "معَ" ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ وقد اتّخذتم الله في أنفسكم وكيلاً على تنفيذِ عهودكم وشاهدًا عليكم، يقُول صاحبُ التّحريرِ والتّنويرِ: "كان النّبيّ ﷺ يأخُذ البيعة

---

[١٣] امحمّد بن يوسف أطفيّش: تيسير التّفسير، مصدر سابق، ج٨، ص٦٥.

[١٤] قد أسهب المفسّرُون في إيرادِ فضائلِ هذهِ الآيةِ؛ وما كان لها من آثارٍ تربويّةٍ في مجتمعِ الصّحابة ومن بعدهم؛ فحريٌّ بطالبِ العلمِ إذا وقف على تفسيرِها أن يقرأَ نفحاتٍ ممّا قيل في شأنها.

على كلّ من أسلم من وقتِ ابتداءِ الإسلامِ في مكّة"[١٥] وأشارَ بأنّ الآية نزلت في ذلك الشّأنِ تحذيرًا لحديثي الإسلامِ من نقضِ العهدِ والارتدادِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ إنّ الله مطّلعٌ على كلِّ أعمالكم وسيُجازيكم عليها، وفي هذا تحضيضٌ على الوفاءِ وتهديدٌ من النّقضِ، والتّوكيدُ وإظهارُ لفظِ الجلالةِ مع جوازِ إضمارِه تقويةٌ لذلك، والفعلانِ جاءَا بالمضارع لدلالةِ التّجدّد أي كلّما فعلتُم فهو عالمٌ بفعلكم. ثمّ يقرّبُ الله صورةَ من يُخلف الوعدَ بعد توثيقه بهذا المثال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ ولا ترضوا لأنفسكم أيّها المؤمنون بأن تكونوا مثل امرأةٍ فكّت نسيجها أجزاءً بعدَ أن اجتهدت في إحكامه؛ وذلك حالُ الأحمقِ النّاقصِ، والمراد: لا تكونوا كذلك فتفوّتُوا على أنفُسكم فضل الوفاء وتبوؤوا بإثمِ النّقضِ، و"أنكاثًا" جمعُ نِكْث وهو الجزء أو القسم المأخوذ من المجموع ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ تتخذونها إفساداً وخديعة كأن تحالفوا جماعة وتعاهدوها، ثم تنقضون عهدكم وتحلون ما أبرمتم من عهد وميثاق وتعاهدون جماعة أخرى لأنها أقوى وتنتفعون بها أكثر، و"الدّخل" أو الدّغل الأمرُ يظهرُ على غيرِ حقيقته غشًّا وخديعةً، وذكرُ الفعلِ الخسيس لصاحبِه مشعرٌ بذمّه و إنكارِه عليه ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ تنقضون أيمانكم -مثلاً- لصالح جماعةٍ هي أكثر مالاً أو أعزّ جاهًا على حسابِ جماعةٍ كان عليكم أن تبرّوا بأيمانكم لها، وتلك عادةٌ جاهليّةٌ؛ ينقُضون الحلفَ مع جماعةٍ إذا ظهر لهم أقوى منها، ولعلّهُ لَمّا كان الخطابُ موجّهًا للمؤمنين يجدُرُ تأويلُ المعنى: لا تحملنّكم كثرةُ المشركينَ أن تنقضُوا العهدَ مع المؤمنينَ، و"أربى" اسمُ تفضيلٍ من الرُّبُوّ وهو الزّيادة ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ إنّما يختبركم الله بما فرض عليكم من الوفاءِ بالعهدِ؛ وبإظهارِ الأمّةِ الكاثرةِ لكم؛ لينظر المطيع من المخالف ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وحين تقومون لربِّ العالمين سيحاسبُكم جميعًا عمّا اختلفتُم فيهِ مبيّنًا المحقَّ من المبطِل، وأكّد وعدهُ باللام في (ليبينن) حملاً على الاستيقانِ به.

٢٦. نهي عن نقض الإيمان لعرض زائل، ودعوة إلى العمل الصالح

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ

[١٥] الطّاهر ابن عاشُور: التّحرير والتّنوير، ج١٤، ص٢٦٠.

صَـــالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَـــنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾

ثمَّ يعلّلُ الله سـببَ تأخيرِ الحُكم بينَ ما اختلفَ فيهِ البشـرُ إلى الآخرةِ؛ بأنّهُ قضـى في الدّنيا أن يجعلهم على حرّيةِ الاختيارِ ﴿وَلَوْ شَـاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ولو أراد الله أن يجمعكم كلّكم على ملّةِ الإسـلامِ لجمعكم ولكنّه لم يشأ ذلك لحكمة أن يكون للإنسـان الاختيار في الإيمان والكفر، وليس المعنى يُجبرُكم على الإســلام و أنتم كارهون له فإنّه منافٍ للحكمةِ و إنّما يخلُق فيكم حبَّ السّــعي إلى أن تكونوا أمّة واحدة، ﴿وَلَكِنْ يُضِـلُّ مَنْ يَشَـاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَـاءُ﴾ فقد شـاء أن يضـلّ بالخذلان عدلاً منه مَن علم منه الميل إلى الضّـلالةِ، كما شـاء أن يوفّق إلى الهداية تفضّـلاً منه مَن وجد منه الميل إلى الهداية ﴿وَلَتُسْـأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وســوفَ يســألُكم الله يوم القيامة على جميعِ ما كلّفكم به تركًا وفعلاً ماذا عملتُم فيه؟ والسّـؤالُ كنايةٌ عن المحاسـبةِ، وسُـؤالُ الشّـقيّ في الآخرةِ سـؤالُ تبكيتٍ وتوبيخٍ؛ فلا يُعارض: ﴿وَلَا يُسْـــأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصـص ٧٨] فمعناهُ لا يُســألُون تحقّقًا ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ ولا تجعلُوا الأيمان بينكم أيّها المؤمنون خديعةً وغدرًا بعقدها ثمّ نقضـها، فقد سـبقَ أن عابَ عليهم هذا قبل آيتينِ والآنَ ينهاهُم تصريحًا؛ وفي هذا تأكيدٌ ومبالغةٌ في النّهيِ تنويهًا بأهمّيةِ حفظِ العهودِ ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فاحذروا أن تزل قدم أحدكم عن الإسـلام بعد أن رسـخت فيه، فيكون حالُكم كحالِ من أوثق وثبّت موضع قدمه مرتكزًا عليه فزلّت به قدمه فهوى هالكًا، وفي هذا تمثيلٌ بديعٌ لتبيينِ حالِ من ابتعدَ عن الإسـلامِ بعدَ أن كان ثابتًا فيه، وفي "بعدَ ثبوتها" تتميمٌ للمثالِ ليظهرُ الفرقُ واضـحًا بينَ حال الزّللِ وحال الثّبوتِ ﴿وَتَذُوقُوا السُّـوءَ بِمَا صَـدَدْتُمْ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ﴾ وينالُكم سـوء لا تتوقّعونه جزاء مكركم و إفسـادكم لسُـمعةِ الدّين الذي تمثّلُونه حتّى صـار النّاس ينفرُون منه، وهذا صـدٌّ غيرُ مباشـرٍ عن الإسلامِ عدّهُ القرآنُ جرمًا يستحقُّ التّشـنيع، والذّوقُ هنا استعارةٌ للإحساسِ القويّ ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولكم عذابٌ عظيمٌ ينتظرُكم في الآخرةِ، وإذا ما وصـف الله عذابه بأنّه عظيمٌ وبصـيغةِ المبالغةِ فهو عظيمٌ حقًّا ﴿وَلَا تَشْـتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولا تطمعوا بنقضـكم لعهدِ الله في عرضِ الدّنيا القليل من جاهٍ أو مالٍ وما إلى ذلك، والاشـتراء الاسـتبدالُ بعوضٍ، و"قليلا" ليس صـفةً مقيّدة؛ فقد أراد بها الهيّن الفاني ولو كان الدّنيا كلّها لأنّ ذلك لا يُساوي شيئًا أمام موعودِ الآخرةِ ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لأنّ ثواب الله الذي أعدّهُ لأهلِ الوفاءِ بالعهودِ هو الأفضـلُ لكم، و"إنّما" في الآيةِ حقُّها الفصـلُ (إنّ مَا) وكتبت بالوصـلِ مناسـبةً لنطقها؛ وكتابةُ المصحفِ تُحفظُ ولا يُقاسُ عليها ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لو كنتم تتصوّرُون ثوابَ الوفاءِ حقيقةً، وفي هذا الأسلوبِ حثٌّ وترغيبٌ على اكتسابِ التّصوّرِ المطلوب ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ ما تطمعون فيه من متاع الدّنيا كلّه زائلٌ منتهٍ؛ وثوابُ الله

هو الأوفر والأبقى، ولعلّه أرادَ بـ"ما عند الله" الأولى الخير الدّنيويّ من عزٍّ وتمكينٍ وفي الثّانية أرادَ الفضلَ الأخرويَّ، وفي الآيةِ محسّنُ الطّباقِ بين ينفد وباق ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والله سيكافئ الصّابرينَ على الابتلاءِ والتّكاليفِ وغيرِهما بثوابٍ يوفّي حقّهم بالنّظرِ إلى أرقى أعمالِهم؛ فالله -مثلا- يُعطي الواحد منّا ثوابَ الصّبرِ على أعلى درجاتِه فيهِ وإن اختلفت أحوالُ صبرِه، ويحتمل أن تكون "أحسن" خارجة عن التّفضيل، فيكون المعنى: نُثيبُهم بسببِ حسنِ أعمالِهم ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ الذي يعملُ في الدّنيا صالحاتِ الأعمالِ من فرضٍ أو نفلٍ سواء كان من جنس الذّكور أو الإناث، ودخل تركُ المنهياتِ في الآية لأنّه اجتهاد في كبح جماح النفس عن الشر، وذكر الجنسينِ معًا اهتمامًا بهما معًا وإشراكًا لهما في التّرغيبِ، وحينَ اهتمَّ في مثلِ هذهِ الآيةِ الجامعةِ بهما معًا كان معقولاً أن يُغلّب جنسًا على آخرَ في غيرِها لظهورِ المرادِ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهو مصدّقٌ بالله على عقيدةِ الإسلامِ الصّافية، وذكر هذا القيد لأنّ المنافق والمشرك لا ثوابَ يثبُت لهما ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ وعدٌ من الله أنّه سيحييه ما عاش في الدّنيا على حياة السّعادةِ والرّضا، فإذا كان ميسور الحال معافى رضي وشكر وإذا ما ابتلي امتلأَ قلبه رضًا وصبرا؛ فبذلك كانت حياته طيّبةً على كلّ حالٍ، وقيل: هي حياةُ البرزخِ أو حياةُ ما بعد الموتِ عمومًا بما فيها الجنّةُ، وأسندَ الإحياء إلى نفسه وأكّدهُ تشريفًا للموعود واهتمامًا به ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ووعدٌ من الله أنّه سيُكافئهم في الآخرةِ على أعمالِهم بما يوفّيها تفضّلاً منه، في الآيةِ السّالفةِ ذكر الصّبر ثمَّ جاء بأجمعِ آيات التّرغيبِ وجدّدَ الوعدَ نفسه تنبيهًا إلى أنّه ليس بينَ المرءِ وفوزِه بما وُعد به إلاَّ مشوارٌ من الصّبرِ. وفي الآية دليل على اشتراط الإيمان والعمل الصالح للنجاة.

٢٧. الاستعاذة بالله من الشيطان عند القراءة، وبيان المقصد من نزول القرآن

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣)﴾

وحين تجدّدت في السّورةِ الدّعوة إلى القرآن كان من اللّطيفِ أن يبسُط شيئًا من الأدبِ في قراءته ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ وإذا ما أردت الشّروع أيّها القارئ في تلاوةِ القرآنِ، ومن طريقِ المجازِ أطلقَ المسبّب وهو القراءة على السّبب وهي الإرادة، ونبّه قُطب الأئمّةِ إلى أنّ الاستعاذةَ بعدَ القراءة أخذًا بظاهرِ الآيةِ خطأٌ

فاحشٌ؛ كما أنّ الاستعاذة قبل القراءةِ وبعدها احتياطًا مخالفٌ للسّنّةِ[16]، و"إذا" شرطيّةٌ فكلّما حدثتِ القراءة ينبغي أن تُستحدث الاستعاذة، وفي "قرأتَ القرآن" جناسُ اشتقاقٍ ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فابدأ بالاستعاذةِ بالله من شرّ الشّيطانِ المبعد من رحمةِ الله[17]، والخطابُ للنّبيّ ﷺ ويعمُّ أمّته، والأمرُ للوجوبِ عند كلّ قراءةٍ للقرآنِ، وقيل: للاستحباب، والاستعاذةُ طلبُ الحمايةِ من الله بدعائه؛ والسّينُ والتّاءُ فيها للطّلبِ، إذ من شأنِ الشّيطانِ أن يجتهدَ في الصدِّ عن القراءةِ أصلاً فإن فشل لم يتوان عن تشتيتِ الذّهنِ لئلاَّ يستفيد القارئ من بركةِ القرآن التي إنّما تحصلُ بالغوصِ في معانيه، وفي تشريعِ الاستعاذةِ إيذانٌ بقداسةِ القرآنِ المنزّلِ من العالم العلويّ، والشّيطانُ إبليسُ؛ نستعيذُ منه بالذّاتِ تعبّدًا لأنّهُ محورُ الشّرّ، والرّجمُ هنا استعارةٌ لحال الطّردِ والإبعاد ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنّ الشّيطان ليست له أيّ سلطةٍ يتمكّنُ بها من قلوبِ أهلِ الإيمان، والسّلطان القوّةُ المسيطرةُ، وفي ذكرِ علّةِ الأمرِ تنشيطٌ للقيامِ به، وأكدّ الكلام تقويةً للعلّةِ ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الذين يعتمدون على الله؛ وذكر التّوكّل لأنّ المستعيذ بالله لا يخلُو من أن يكونَ متوكّلاً عليه، وقدّم الجارِ والمجرور على متعلّقه لنكتةِ الحصرِ، وجعل التّوكّل بالمضارعِ للتّنبيه على تجدّده منهم ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ فإنّما تسلّطه و اقعٌ بإذنِ الله على من أحبّوا طريق الشّيطان باتّباعه والرّضوخِ إلى أوامرِه وبقوا على ذلك حتّى وكأنّه وليُّهم المحبوب، والولايةُ حبٌّ بالقلبِ ومؤازرةٌ بالجوارح، ولا أحدَ يقبلُ بالشّيطانِ وليًّا و إنّما ذلك تحصيلُ حاصلٍ وو اقعُ حالٍ، و أفادت المضارعيّة معنى: أنّه كلّما تولّوه تسلّطَ عليهم أكثر ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ الذين هم بسببِ طاعتِهم للشّيطان صارُوا مشركين بالله الواحد، و"به" عائدةٌ للشّيطان، و"الباء" للسببية، أي بسبب الشيطان، وأوردَ الجملةَ اسميّةً لإفادةِ الثّبوتِ؛ والمعنى أنّهم بتولّيهم له ترتّب الإشراك فرسخُوا فيه.

ويتطرّقُ في حديثه عن القرآنِ وقراءته إلى بيانٍ في شأنِ النّسخِ إذ هو قطعةٌ من قطعِ الوسواس الذي يقذفُه الشّيطانُ ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ وإذا نسخ الله آيةً أنزلها على الرّسُول ﷺ وأوحى إليهِ بآيةٍ

---

[16] يُنظرُ امحمّد بن يُوسف أطفيّش: تيسير التّفسير، مصدر سابق، ج٨، ص ٧٥و٧٦.

[17] الاستعاذةُ قبل القراءة حكمٌ نطقَ به القرآن واستُنبطَ لفظُها من السّنّة القوليّة، ومن أشهرِ الأحاديث في ذلك حديثُ أدب التّعاملِ عندَ الغضب، فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَجَعَلَ أَحَدُهُمَا تَحْمَرُّ عَيْنَاهُ وَتَنْتَفِخُ أَوْدَاجُهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنِّي لَأَعْرِفُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ؛ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ..." رواهُ مسلم، ك: البر والصلة والآداب، ب: فضل من يملك نفسه عند الغضب، ر: ٢٦١٠(٤/٢٠١٥).

كما دقّق أهل الاجتهاد في ذلك؛ وفي معنى ما قالهُ ابن عاشُور: ومن أحسنِ الامتثال محاكاةُ صيغة الأمرِ، بأن يُقال: أستعيذُ أو أعوذُ؛ واختير لفظُ "أعوذُ" لأنّه أقوى في الإنشاء، كما أنّه اقتداءٌ بما في قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون ٩٧]، ثمّ نبّه إلى أنّ الرّسُول ﷺ التزم بفحوى هذه الآيةِ في غيرِ قراءته للقرآنِ. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٢٧٦.

مكانها؛ والمكانُ مجازيٌّ، والنّسخُ يأتي على اللّفظِ أو الحُكم وقد يأتي عليهما معًا، والنسخ قليلٌ جدًّا في القرآن المكّيّ؛ لأن الأحكام فيه قليلة إذ أكثر ما فيه عقائد وأخلاق وهي غير قابلة للنسخ، والتّبديلُ لا يلزمُ منه إبطال المبدل فقد تبقى الآية متلوّةً مع أنّها نسخت ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ والله هو المشرّعُ لا تبدُو له البدواتُ كالخلق؛ أنزل بعلمٍ ونسخ بعلمٍ مراعاةً لمصالحهم، والجملة اعتراضيّةٌ لتنزيه الله عن الغلطِ أو العبث، وذكر اسم الجلالةِ مبتدئًا به لتربيةِ المهابة، والتفتَ من الخطابِ إلى الغيبةِ تفنّنًا ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ وجد الكفّار ذلك فرصةً للطّعنِ في رسالتِك فقالوا: إنّك يا مُحمّد تكذبُ على الله حين تبدّلُ آيةً بآيةٍ، وفي ردّهم هذا تنبيهٌ على إطلاقهم للأحكامِ بلا رويّةٍ؛ وتعبيرهم بأسلوبِ القصرِ دلّ على أنّهم مجازفون فيها إذ قصرُوا مهمّته في الافتراء؛ وبصفةِ الدّوامِ الذي نبّهت إليها الجملةُ الاسميّةُ "إنما أنت مفتر" ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفي الحقيقة أكثر أولئك الكفّار يجهلُون حكمة النّسخِ بأنّه تدرّجٌ في التّشريعِ؛ كما يجهلون بأنّ الرّسُول ﷺ مؤتمنٌ لا يجوزُ أن يوصف بالافتراء، و أقليّتُهم تعلمُ وتُكابرُ، ويجوزُ تفسيرُ الأكثرِ بالكلّ.

وبعدَ اتّهامِ المشركين الرّسُول ﷺ بأنّه افترى القرآن أمرهُ الله بأن يُجيبهم دعمًا له لئلاّ تكونَ مكابرتُهم العنيدة مانعةً من محاورته لهم ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ قل لهم: بأنّ القرآن كله في شتّى محطّاته ينزّله عليَّ جبريلُ عليه السلام نقلاً عن الله بالصّفةِ التي تلقّاها منه من غيرِ تبديلٍ أو تحريفٍ، وعدل عن خطابِهم للتّهوينِ منهم وخاطب الرّسُول ﷺ تشريفًا، وهاءُ "نزّله" للقرآنِ وإن لم يجرِ له ذكرٌ لدلالةِ المقامِ عليه، وسمّي جبريلُ بالرّوحِ لأنّه بمجيئه بالوحي أحيا القلوب كما تحيي الروح الأجساد، و"القُدس" اسمٌ لله أو معناهُ الطّهر؛ والإضافةُ من إضافةِ الموصوف إلى الصّفةِ للمبالغةِ كقولنا: فارُوق العدلِ نعني العادل. ثمّ يبيّنُ الحكمة من إنزال القرآن ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أنزله لأجلِ تثبيتِ أهلِ الإيمان مرّةً بعد مرّةٍ بحججه وبراهينه؛ ولهداية من أسلم إلى الصّراطِ المستقيم الذي ارتضاهُ الله لهم؛ وليكون بشارةً لهم بالجنّةِ فيثبتوا على الحقّ ويصبروا، ووصفهم بالإسلامِ ولم يقل: لهم؛ لمزيدِ مدحِهم.

وممّا اعترض به الكفّار على الرّسُول ﷺ أيضًا ادّعاؤُهم أنّه يتلقّى القرآن من مصدرٍ بشريّ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ و إنّا نعلم أيّها الرّسُول ﷺ بأنّ قومك يدّعون بأنّك تتلقّى الوحي عن إنسانٍ لا عن جبريل عليه السلام، ووصف قولهم بالمضارعِ وبصفةِ المجموعِ و أكّدهُ للتّنبيهِ على تواطئهم في الاتّهام وإصرارهم عليه، وهاءُ "يُعلّمه" للرّسُول ﷺ لا للقرآنِ؛ وجاء به مضارعًا لمعنى دأبه على تعليمِه. يردُّ الله عليهم: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ لا يصحُّ ذلك لأنّ كلام الذي يظنُّون بأنّه يعلّم محمّدًا ﷺ أعجميٌّ غير فصيحٍ؛ وكيفَ للأعجميّ أن يعلّم لسانًا لا يُحسنُه؟ و"يُلحدون" من اللّحد وهو الميلُ؛

فهم تركوا الحقَّ الواضح ومالُوا إلى حجّةٍ باطلةٍ، وظاهرُ"إليه" تفيدُ بأنّه واحدٌ؛ واشتُهر بأنّه فتى روميٌّ نزلت الآية في شأنه، والأعجميُّ -قيل- كلُّ من في لسانه عجمةٌ ولو كان عربيَّ الأصلِ ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ وأمّا هذا القرآن فهو بلغةٍ عربيةٍ فصيحةٍ؛ سريعُ الظّهورِ بمعانيهِ لمن تأمّله، وفي هذا تشريفٌ لا يخفى للُّغةِ العربيّة لأجل قوّتها ولياقتها لأن تكون وعاءً للرّسالة السّماويّةِ الخاتمة، وفي استعمالِ اللّسانِ لمعنى اللّغةِ والكلامِ استعارةٌ، وبين "أعجميٌّ وعربيٌّ" محسّنُ الطّباق.

٢٨. الختم على قلوب الكافرين وتوعدهم بعذاب أليم

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩)﴾

وبعد خصوص الحديثِ عنِ المشركينَ ومكابرتهم يتحدّثُ بصفةٍ عامّةٍ مقرّرًا سنّةً من سننِ الهدايةِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ إنّ المكذّبين بآياتِ الله التي أنزلها لا يطمعون في هدايةِ الله لهم هداية توفيق للإيمان؛ لأنّ هداية التّوفيقِ تبدأُ من المرءِ ثمّ يزكّيها الله إن وجد منه الصّدق ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم في الآخرةِ عذابٌ مؤلمٌ ينتظرُهم، وعَدَل عن صيغة مُفعل (مؤلم) إلى فعيلٍ (أليم) لنكتةِ المبالغةِ في التّهديد ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ إنّما يكون اختراع الأكاذيب ممّن لا يُؤمن بآياتِ الله المنزلة أو المرئيّة فهو غيرُ مؤمنٍ بالله ولا بعذابه ولذلك لا يرتدعُ عمّا حرّمه، أمّا الرّسُول ﷺ فهو المصدّقُ بكلّ ذلك والصّادق في ذاته المصدُوق الذي لم يُعهد منه كذبٌ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ وأولئك هم المتصفون حقا بالكذب، والإشارةُ إليهم لتمييزهم وتخصيصهم، والصّيغةُ من قصرِ الموصوفينَ على الصّفةِ مبالغةً وكأنّه ليس ثمّةَ من يكذبُ غيرهم، وهذا ردٌّ على قولهم: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾.

وفي سياقِ محاججةِ النّبيِّ ﷺ لقومه ناسبَ أن ينبّه إلى أثرِ ذلك في اضطهادِ المؤمنين بالإكراهِ على الكفرِ ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ الذي كفر بالله بعد أن آمن به، و"مَنْ" بدلٌ من "الكاذبون"، أو مفعولٌ به لفعلٍ محذوف تقديرُه أذمُّ، أو شرطيّةٌ أو مبتدأ وفي كلا الحالين يقدّرُ جوابُ الشّرطِ أو الخبر بما يناسبُ السّياق الآتي أي: فعليهم غضبُ الله ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ باستثناء الذي أكرهَ فنطق بكلمةِ الكفرِ حالَ كونِ قلبه ممتلئًا بالإيمان فذلك لا حرج عليه، والإكراهُ قد بيّنه العلماء بأنّه ما

وصلَ إلى حدٍّ لا يُطاق، وعموم المفسّرينَ على أنّ الآية نزلت في شأنِ عمّار بن ياسر ﷺ لَمّا قتل أبواهُ ونطقَ بكلماتِ الكفرِ اضطرارًا لينجوَ ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أمّا من نطقَ بالكفرِ وصدرُه مرتاحٌ إليهِ في حالِ اليسرِ أو الإكراه؛ وأصلُ المعنى: شرحَ بالكفرِ صدرهُ ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فأولئك يلحقُهم غضبُ الله وينتظرهم عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ، وعبّر عما يلحقهم من العذاب بجملتينِ اسميّتين لما تُفيدانه من الثّبوتِ والدّوام، ونكّر "غضب" للتّهويل منه؛ وجعله من الله تقويةً للمهابةِ، وهذهِ الآيةُ ترهيبٌ يُقابلُ التّرغيب الذي سبقَ في وعدِ من آمن وعمل صالحًا بالحياةِ الطّيّبة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ استسهلُوا الكفر بعد الإيمانِ لكونهم فضّلُوا متاع الدّنيا الزّائل الكدر على ثوابِ الآخرةِ الباقي المحبوب، وفي "استحبُّوا" مبالغةٌ في الاستحباب، ويجوزُ عودُ "ذلك" إلى الغضبِ والعذابِ بمعنى: أنّهم بسببِ استحبابِهم للدّنيا استحقُّوهما، وهي إشارةٌ تفخيم لما رجعت إليه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ وبسببِ أنّ سنّة الله قضت بعدمِ هدايةِ الكافرينَ فكان عليهم غضبٌ وعذابٌ عظيمٌ، فهما سببانِ استحقُّوا بهما غضب الله وعذابه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ﴾ والذين كانت صفتُهم كذلك فَأولئك الذينَ ختمَ الله على آلاتِ إدراكهم للحقّ لَمّا أهملُوها وأغلقها؛ فصارت قلوبهم بالكفرِ و إيثارِ الدّنيا لا تفهمُ الحقَّ وإن وَجَدَتْ خيرَ مبلّغٍ كالرّسُول ﷺ وصار سمعُهم لا يستقبلُ آياتِ الله بخشوعٍ وتدبّرٍ و أبصارُهم معطّلةٌ عن رُؤيةِ البراهين الكونيةِ، وإشارةُ البعيدِ (أولئك) للتّحقيرِ، والطّبعُ الإغلاق؛ وأصل الطبع في المحسوسات المغلقة بإحكام واستعير في الآية للمانع المعنوي الذي يمنع الجوارح من التأثر بما يصلها، فصارت كأنها مغلقة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ وأولئك هم اللاّهون الغافلون عمّا خلقُوا من أجله، وأعاد اسم الإشارةِ إمعانًا في كشفهم، وفي الآية قصر الموصوفين على صفةِ الغفلةِ للدّلالة على تمكنهم فيها؛ فكأنّ بلوغهم فيها غايةً لا تتصوّرُ لم يُبقِ لغيرِهم مرتبةً تُذكر، وفي الآية تحذير بالغ من تعطيل الجوارح عما خلقت له من الخشوع لجلال الله والنظر في ملكوته والسماع لآياته ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حقًّا سيكونون في الآخرةِ من أهلِ الخسارةِ الأبديّةِ؛ إذ ضيّعُوا نعمة الأعمار الغالية لم يشترُوا بها الجنّة، وتركيبُ "لا جرمَ" مستعملٌ في تأكيدِ ما يأتي بعدهُ، وسياقُ الآيةِ فيه تهويلٌ كبيرٌ على المرتدّ عن الدّينِ وتحذير بالغ من الردة عن دين الله الحق.

٢٩. جزاء الجهاد والصبر، وعقوبة كفر النعم وتكذيب الرسل

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌرَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣)﴾

ثمّ ينتقلُ إلى الحديثِ عن المؤمنين المخلصينَ، و"ثمّ" للانتقالِ الرّتبيّ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ إنّ ربّكَ أيّها الرّسُول ﷺ لناظرٌبنظرِ المغفرةِ والرّحمةِ للذينَ اضطهدوا في دينهم في مكّةَ حتّى هاجرُوا إلى الحبشةِ ثمّ إلى المدينةِ، واستعمل لفظَ الرّبوبيّةِ الذي يوحي بالرّعايةِ اللّدنيّةِ؛ ولم يقل: إنّ الله؛ ليدمج بينَ الإشارةِ إلى الله وإلى نبيّه مناسبةً لمقامِ ذكرِمَن أوذوا في الله لأجلِ نصرةِ النّبيّ، ولنكتةِ الاهتمامِ قدّمَ "للذين هاجرُوا" على متعلّقه "غفُورٌرحيم" الآتي ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ وبعد فتنهم لم يزالُوا ثابتين على الحقّ صابرينَ عليهِ وعلى البلاء والشّدائد ما وجدوا قوّةً على ذلك، والجهادُ هنا جهادُ النّفسِ وردّ ما يفتنُهم به المشركون فالقتالُ لم يُشرع بعدُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌرَحِيمٌ﴾ إنّ ربّكَ اللّطيف بأحوالِ عبادهِ واسعُ المغفرةِ كثيرُالرّحمة بعد الهجرةِ والمجاهدةِ والصّبرِعلى الفَتْنِ، وأكّد الخبر للتّنويهِ بأحقّيةِ الوعدِ، وجدّد "إنّ ربّكَ" لطولِ الفصلِ ولغرضِ تقويةِ التّوكيدِ.

ولمّا كانت الهجرةُ في الله والصّبروالمجاهدةُ فيه من أسبابِ الفوزِالأخرويّ انتقلَ بنا إلى محطّةٍ أخرويّةٍ رهيبةٍ لا تتمنّى النّفس فيها غيرما قدّمته لأجلِ نجاتها تحبيبًا لتلكم الخصالِ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ واذكرلهم أيّها الرّسُول ﷺ يوم الحشرِالأكبرالذي تحاولُ كلّ نفسٍ شقيّة فيه أن تدافع عن نفسها للخلاص لا يهمّها أمرُغيرِها مهما كان ذا رحم أوقريبًا أوصديقًا، والمفاعلة في (تجادل) للمبالغة أي تُجادلُ جدالاً شديدًا، وقيل: الآية شملت السّعداء أيضًا بناء على ظاهرالآية (كل نفس)، ويُمكنُ حملُ مناسبة الآية أنّها تسليةٌ للرّسُول ﷺ والمؤمنين وتخويفٌ للمشركين الذين يتواطؤون على اضطهادِهم بأنّه سوف تتبرّؤون من بعضكم ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ وهنالكَ تُجازى كلّ نفسٍ حسبَ عملها، والتّوفية الإعطاء الكامل، وصالحاتُ الشّقيّ وفّي له جزاؤُها في الدّنيا فلم يبقَ له في الآخرةِ منها شيءٌ، ويُوفّي الله التّقيّ عملهُ فضلاً منه، وأمّا في العقابِ فلا يزيدُ الله في العذابِ غيظًا، كما لا يزيدُ في الثّوابِ محاباةً؛ ولا يُنقصُ بالعكسِ كذلك، وأظهر "كلّ نفسٍ" ثانيةً لزيادةِ تقريرِشموليّةِ الجزاءِ والعدالةِ الإلهيّةِ على الخلقِ؛ ولتكون الآية كمَثَلٍ أجراهُ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ والله لا يظلمُ أحدًا أبدًا ولو في قدرِنقيرٍ، وفي هذا تأكيدٌ لما سبقَ.

ومن أسبابِ سقوطِ الأمم والحضارات بطشُها وتعاليها على الحقِّ؛ فيتعرّضُ هنا إلى موقفِ قريشٍ الظّالم حيث كان جزاءُ اضطهادِها للمسلمين وإخراجِهم حلول النّقمةِ بها ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ جعل الله لكم نموذجًا للأمّةِ المتقهقرةِ بمكّةَ التي كانت آمنةً في أسفارِها مطمئنّةً على أجوائها لا تخافُ عدوًّا لقوّتها ولا تخشى جوعًا لكثرةِ مواردِها، وقدّم "مثلاً" وهو مفعولٌ ثانٍ للتّشويق، كما أنّه عبّر عن المثلِ الحاضرِ بالماضي لأنّ النّفس أميل إليه، والمثلُ ذاتُ القريةِ أو أهلُها فيُقدّرُ مضافٌ (أهل قرية)، وقدّم الأمن لأنّه سببٌ للاطمئنان، واطمئنانُ القريةِ مجازٌ عن استقرارِ أوضاعها الأمنيّةِ وارتياحُ أهلها لها وعدم تفكيرِهم في الانتقالِ عنها ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ تفيضُ عليها القو افلُ بالبضائع الكثيرةِ من كلِّ ناحيةٍ برًّا وبحرًا، والرّغد الواسع الهنيء، و"من كلِّ مكانٍ" مبالغةٌ في وصفِ الموارِد الكثيرةِ ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ وحينَ ظهر نبيُّ الله فيهم يذكّرُهم بأنّ ما يجدونه من العيشِ الآمن والحياةِ الرّغيدة هو من فضلِ الله بادرُوا إلى ردّهِ كافرين بنعمِ الله، والفاءُ أفادت مسارعتهم للردّ، و"أنعم الله" شاملٌ لعموم النّعم كنعمة الدّين والرّسول ﷺ ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ فعاقبها الله بإبدالِ رغدها جوعًا وبإبدال أمنها خوفًا لَمّا كانت قو افلهم تضايقُ فلا تصلُ إليهم في الوقتِ المطلوبِ وعلى الحالِ الذي انطلقت به، وفاءُ التّعقيبِ هنا مع طول مدّةِ النّعمةِ تنزيلٌ لها منزلةَ المدّةِ المنعدمةِ لشدّةِ البأسِ الذي حلَّ بهم، واللّباسُ لا يُذاقُ و إنّما استعيرَ الذّوقُ لإدراكِ الضّررِ؛ واستُعيرَ اللّباسُ لحالِ الإحاطةِ بالضّرّكما يُحيطُ اللّباسُ بالجسد؛ وتفنّنًا في الاستعارةِ جعل اللّباس في شيئينِ "الجوع، الخوف" مناسبةً لغالبِ أحوالِ الألبسةِ ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ بسببِ أعمالِهم السّيئةِ، وعبّر بالصّنعِ عن الأعمالِ تنبيهًا لتمكّنهم عليها حتّى صارت كالصّنعةِ الرّاسخة ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ ولقد بعث الله إلى أهلِ مكّةَ محمّدًا ﷺ وهو واحد منهم يعرفُون نسبه وصدقه ومع ذلك سارعُوا إلى تكذيبه، ولامُ "لقد" موطّئةٌ لقسمٍ محذوف ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فكان جزاء تكذيبهم أن سلّطَ الله عليهم عذابًا استأصلهم به فهلك أشر افُهم و أقوياؤهم ظالمين لأنفسهم وذلك حين اشتدَّت عليهم غزوةُ بدرٍ بقلّةٍ من المؤمنين مؤيّدين بالملائكة، وخصوص المثلِ المضرُوب على قريةِ مكّة لا ينحصرُ فيها فتلك سنّة الله في كلِّ أمّةٍ.

٣٠. الأكل من الطيبات واجتناب الخبائث والنهي عن الكذب على الله تعالى

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى

اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾

وبعد أن بيّن عاقبة القريةِ التي كفرت بأنعم الله يدعو أهل الإيمان إلى التّعامل الأمثل مع نعمِه ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ وكلوا و انتفعوا من جميعِ ما رزقكم الله وجعله من الحلالِ الطّيّب، والأمرُ للامتنان، والآيةُ دليلٌ على أنّ الأصل في الأشياء الحلّ حتّى تُبيّن حرمتها وتثبُت، وذكر الأكل دون الشّربِ من بابِ التّغليبِ، وبالحلال خرج المحرّمُ والمشبوه، وبالطّيّب خرج الخشن والرّديء، أو الطّيّب صفةٌ كاشفةٌ تنبّه بأنّ عموم الحلال طيّبٌ وإن بدا خشنًا رديئًا ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ وأدّوا حقَّ النّعم الإلهيّة بشكر الله وصرفها في طاعته، وهذا مقابل: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أي لا تكونوا مثل أهلِ القريةِ التي ضُربت مثلاً، وأظهر اسم الجلالةِ وحقُّه الإضمار تبجيلاً لمن وجب شُكره وتذكيرًا ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إن كنتم تعبُدونه حقَّ العبادة، وتقديمُ المفعولِ به "إيّاهُ" على فعله لنكتةِ الحصرِ وتحسينِ الفاصلة، وفي هذا التّذييل إثارة للاجتهادِ في إخلاصِ العبادة ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ والحلالُ واسعٌ وما حرّم أمورٌ منها: الميتةُ؛ وهو الحيوانُ يموتُ حتف أنفه بلا ذكاةٍ صحيحةٍ، والحصرُ إضافيٌّ فثمّةَ محرّماتٌ أخرى كالسّباع والنّجاسةِ ﴿وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ والدّم؛ إذا خرج مسفوحًا من الحيوانِ بأيّ طريقةٍ كانت، ولحم الخنزير؛ وهو الحيوان البريّ المعروف؛ وذكر لحمه لأنّه المقصود الأوّل بالانتفاع وسائرُ الانتفاع به محرّمٌ ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ وما ذبح لغيرِ وجه الله تعالى من الحيوانات، والإهلالُ رفعُ الصّوتِ استعير من الجهرِ برُؤيةِ الهلال؛ والمراد ما ذكر عليه غير الله بجهرٍ أو إسرارٍ ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ والذي يلجأُ اضطرارًا إلى شيءٍ من الحرام المفصّلِ لكم لم ينوِ بغيًا ولا تعدّيًا على أحكامه، وقيل: ذلك الاضطرار مع كونه غير خارجٍ عن إمامٍ عدلٍ ولا متعدٍّ على النّاس، والباغي الظالم الطالب لما لا يحل له والعادي المعتدي المجاوز لما له إلى ما ليس له ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فاعلموا أنّ الله أهلٌ للغفرانِ لا يؤاخذُ على أحوالِ الضّرورة وأهلٌ للرّحمةِ لا يكلّف بما لا يُطاق.

وبعد ذلكم البيان يقرّرُ الله بأنّ الحلال والحرام ما بيّنهُ هو لا ما ادّعاهُ النّاس ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ ولا تصنعُوا أيّها النّاس أوصافًا كاذبةً فيما تتحدّثُون عنه من المطعوماتِ وغيرِها، وتقديرُ معنى الآيةِ: ولا تقُولوا الكذبَ عمّا تصفُ ألسنتُكم من الأشياء، ولامُ "لما" بمعنى "عن" الدّاخلة على المتحدّث عنه ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ تقُولون لغيرِكم: هذا من الحلال وهو حرامٌ كالميتةِ؛ وذاك من الحرامِ وهو حلالٌ كالبحيرةِ، وبدأَ بالتّحليل لأنّه أخطر فأثرُه إقدام المفتى لهُ بخلافِ التّحريمِ يكون امتناعًا، والنّهيُ في الآيةِ منصرفٌ إلى القولِ بغيرِ علمٍ وإن صادف صاحبُه الحقَّ؛ لأنّ مجرّد التّجرُّؤ عليه استباحةٌ للكذبِ على الله، وهو الذي أفادهُ بقوله: ﴿لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ تتجرّؤون على ذلك

لتخلصــوا إلى الكذب على الله، ولامُ "لتفترُوا" للعاقبةِ لا للتّعليل فإنّ الحاصــلَ بعد القولِ بغيرِ علمٍ افتراءٌ على الله قصـدهُ صـاحبُه أو لم يقصـدهُ، وفي الآية تحذير من الإفتاء بغير علم، فليحذر المسـلم من التسـاهل في ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ إنّ الذين يختلقُون الأكاذيب على الله يستحيلُ أن ينالُوا عفو الله الدّنيويّ ولا رضوانه الأخرويّ. وفي الواقع المشاهد اغترارُ النّاس بإمهالِ الله للعصـاةِ وتسـاؤُلُهم أين انتقامُ الله منهم؟ فيأتي الجواب: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ انتفاعُهم بذلك الافتراء متاعٌ قليلٌ، أو تمتُّعهم في الدّنيا محدّدٌ منتهٍ وينتظرُهم عذابٌ أخرويٌّ في النّارِ مؤلمٌ فظيعٌ دائم اشتروهُ بتمتّعٍ قليلٍ، وقدّمَ "لهُم" للاهتمامِ بتصويرِ ذلكم الاستحقاق و إيقاعه عليهم.

ومن بابِ الاعتبارِ يذكُر ما حرّم على اليهود انتقامًا منهم بعد أن بيّن ما حرّم علينا للمضــرّةِ لنلمس أثر رحمته بنا ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَـصْـنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ ولقد حرّمنا على اليهودِ ما سـبقَ أن قصـصـناه عليك أيّها الرّسُـول ﷺ، وهذه إشـارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُـحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام ١٤٦]، وقدّم الجار والمجرور على متعلّقه للحصــرِ والاهتمامِ بالذّمّ ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَــهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ والله لم يظلمهم لمّا حرّم عليهم كلّ ذلك ولكنّهم ظلموا أنفسـهم باكتسـابِهم لما اسـتحقُّوا به تلكم العقُوبة من المعاصـي؛ قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء ١٦٠].

رحمة الله تعالى بالتائبين، والأمر باتباع ملة إبراهيم عليه السلام وذكر الاختلاف في شأن السبت

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّـوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ (١٢٠) شَـاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)﴾

لَمّا تناولت السّـورة جملةً من المنهياتِ التي ذمَّها الله وكان آخرها التّحليل والتّحريم بغيرِ علمٍ ناسـبَ أن ينبّه إلى عفوهِ كيلاَ يظنَّ النّاس بأنّ عِظَم ما ارتكبُوه قد يردَّ عفو الله عنهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّـوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ و"ثمَّ" للانتقالِ الرُّتبيّ من أمر الوعيدِ على العصـيانِ إلى أمرٍ أهمَّ منه بالنّسـبة للمخاطبينَ وهو التّوبةُ والغفران، وإنّ ربّك يا مُحمّد ﷺ لظاهرٌ بالعفوِ للذين اكتسـبُوا السّـيئاتِ عن جهلٍ بتحريمها أو عن تعدٍّ وبغيٍ، والجهالةُ في موضـوعِ التّوبةِ غالبًا ما تنصـرفُ إلى معنى الاندفاعِ نحو الباطل جهلاً بالعواقب؛ فتلك الجهالةُ؛ لأنّ غالب المعاصي معلومةٌ، وسـمّي الذّنبُ سـوءًا لأنّه يسـوءُ

صاحبه بل يسوء حتّى غيرهُ ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ ثمّ أحدثُوا بعد عملهم السّيء توبةً صادقةً وأصلحوا حالهم وما أفسدوهُ بسببِ المعصيةِ، و"ثمّ" للتّراخي في الزّمان؛ فعلمنا أنّه يقبلُهم ولو مع تأخّرهم فكيف إذا بادرُوا! و"من بعدِ ذلك" إشارةٌ إلى العملِ السّيّء لتجديدِ الامتنانِ بمغفرته ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌرَحِيمٌ﴾ إنّ ربّك من بعدِ التّوبةِ والإصلاح واسعُ المغفرةِ عظيمُ الرّحمةِ، وجاء خطابًا للنّبيّ ﷺ تلويحًا بأنّ المغفرة من بركاتِ ما بُعث من أجله، والخطابُ في الموضعينِ تضمّنَ بتكرارِه وتأكيدِه وبصيغةِ المبالغةِ في "غفوررحيمٌ" تأنيسًا لطيفًا ودعوةً حثيثة لهم إلى التّوبةِ، واستعمل لفظ الرّبوبيّة لما يرسُم من معاني الرّعايةِ والاهتمام.

وفي خواتيم السّورةِ التي كان أغلبُها دعوة إلى التّوحيدِ والإنابةِ إلى الله يذكُر القدوةَ العظيمة في ذلك ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ إنّ نبيَّ الله "إبراهيم" كان مجتمع خصالِ الخيرِ، والمعنى كان فردًا يحملُ خصالَ أمّةٍ صالحةٍ بأكملها، ومن عُرف العربِ إطلاقُ الأسماء المؤنّثةِ على مفردٍ مذكّرٍللمبالغةِ؛ كأن يقولوا: فلانٌ نخبةٌ أو آيةٌ أوراويةٌ أورحمة، ويجوزتفسير"أمّة" بمعنى مُقتدى به؛ كما قال تعالى له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة ١٢٤] ﴿قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ كان مطيعًا لله يعبُده وحدهُ لا يشركُ به شيئًا، والقانتُ المطيعُ، والحنيفُ من حنف أي مال عمّا كان عليه قومه من الشّرك وجانَبَهُ؛ وهو ميلٌ معنويٌّ فلم يكن مشركًا أبدًا؛ وهو ما أكّدهُ بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولم يكن بتاتًا مع فريقِ المشركين ولو في خصلةٍ من خصالِهم، وفي هذا تعريضٌ بقريشٍ وغيرِهم من اليهودِ والنّصارى حينَ زعم كلٌّ منهم أنّه على ملّته ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ يؤدّي حقّ نعم الله عليه بطاعته وعدم ارتكاب مناهيه؛ لا يكفرُها كما تكفُرونها أيّها المشركون، و"أنعُم" على صيغةِ "أفعل" لجمعِ القلّةِ؛ وفيه تنبيهٌ على أنّه شاكرٌعلى القليل وعلى الكثير من بابِ أولى، ولأجلِ تلكم الخصالِ اتّخذهُ الله خليلاً ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ اختارهُ الله لخلّته وحملِ رسالته وسدّد خطاهُ فكان قائمًا على طريقِ الحقّ المستقيم؛ وهو منهجُ الإسلام الذي اجتمعت عليه كلُّ الرّسل، والاجتباءُ الاختيارُ من جبى أي اختارَوجمعَ ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وأكرمناهُ في الدّنيا بالحياةِ الطّيبةِ، بالعيش على أعلى مستوياتِ الرّضا النّفسيّ؛ وبالذّرّية الصّالحة؛ وبالولد في الكبر؛ وبالذّكرِ الحسنِ في الآخرين؛ وغيرذلك، وفي "آتيناهُ" التفاتٌ عن الغيبةِ للحضور، للاهتمامِ بشأنِ إتيانه ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وإنّ إبراهيم عليه السلام في الآخرةِ من أهل الصّلاح الذين رضي الله عنهم.

وبعد زهاء عشر خصالٍ يذكرُها الله في إبراهيم عليه السلام يأمرُ الرّسُول ﷺ باتّباعه تركًا لملّة المشركينَ والذينَ هادُوا حيثُ لم يتبعُوهُ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ نوصيكَ أيّها الرّسُول باتّباعِ طريقةِ إبراهيم عليه السلام في الإسلامِ لله وتركِ الشّركِ، و"ثمّ" للارتقاءِ الرّتبيّ من مدحِ الخليلِ عليه السلام إلى الحديثِ للنّبيّ

ﷺ تنويهًا بشـأنه، و اتّباعُ ملّة إبراهيم اتّباعٌ لمنهجِه في التّوحيدِ وأصـولِ ديانته؛ والآيةُ بهذا شـاهدٌ على مقامِ إبراهيم عليه السلام، ووجّه الأمر بالاتّباعِ للنّبيّ ﷺ ليكون منطلقًا وصورةً يقتبسُ منها أتباعُه منهجَ الاتّباعِ الصّـحيح ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ﴾ فقد كان إبراهيمُ عليه السلام على التّوحيد الخالص بعيدًا عن ضلالات المشركين، ونفيُ الكونِ من أعلى مراتِب النّفي؛ وتجدّدِ مرة أخرى مدحه بكونه حنيفا ولم يكن من المشركين لأجل المبالغةٌ في مدحِه وتنزيهٌ لمقامه عن الشّركِ.

وعظّم اليهود السّبت لاعتقادِهم أنّ الله بدأ خلق الكونِ يوم الأحد و أتمّه يوم الجمعةِ فبقي السّبتُ يوم راحةٍ؛ واعترضـوا على مُحمّدٍ ﷺ بأنّه لو كان متّبعًا لإبراهيم عليه السلام لاتّخذ السّـبت عيدًا، فردَّ الله عليهم: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ إنّما أوجب الله تعظيم يوم السّبتِ بالتّفرّغ للعبادةِ وعدمِ الصّـيدِ وعموم العمل على اليهودِ الذين اختلفُوا فيه مع بعضـهم أو مع نبيّهم موسـى عليه السلام، وذلك أنّه أمرهم بتعظيمِ يومِ الجمعةِ[١٨] فخالفُوا إلى السّـبت بمنطلقٍ عقديٍّ فاسـدٍ فأوجبه الله مشـدّدًا عليهم، وعدل عن تسميتهم باسمِهم واستعمل الصّلة (الذين اختلفوا) لأنّها جمعت بينَ تعريفِهم بما اشتهرُوا به وعلّة الحديثِ عنهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وإنّ الله سـيقضـي يوم القيامة بحُكمه العادل بين ما اختلف فيه أولئك اليهودُ مع بعضـهم، ولا بأس من عودِ "فيه" في الموضعينِ إلى إبراهيم عليه السلام على تقديرِ مضافٍ أي ملّته؛ ربطًا للآياتِ ببعضها.

٣١. الحكمة في الدعوة، والعدل في أخذ الحق، والصبر على إيذاء الناس

﴿ادْعُ إِلَى سَـبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَـنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَـلَّ عَنْ سَـبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَـبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّـابِرِينَ (١٢٦) وَاصْـبِرْ وَمَا صَـبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَـيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)﴾

---

[١٨] أوردَ الكثيرُ من المفسّرين في صدد تفسيرهم للآية حديث أبي هريرة أنّه سمع رسُول الله ﷺ يقُول: "... وَهَذَا يَوْمُهُمْ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ؛ فَهُمْ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ فَالْيَهُودُ غَدًا [يعني السّبت] وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ [يعني الأحد]". رواهُ الربيع، ب: باب في صلاة الجمعة وفضل يومها، ر:٢٧٨. في .

أشارُوا بذلك إلى أنّ الجمعة يومٌ اختارهُ الله لنا وللأمم قبلنا عيدا أسبوعيّا؛ دون ربط ذلك بمسألة خلقِ الكون.

وخالفَ ابن عاشُور الجمهور بأنّ السّبت جعل لليهودِ ابتداءً كما جعل الأحد للنّصارى والجمعة لنا ورجّحَ بأنّه يومٌ ادّخرهُ الله لهذه الأمّة؛ بدليل: "فهدانا الله له"، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٣٢٣.

وفي ختامِ السّورةِ التي تناولت محاججة أهلِ الشّركِ؛ ومناسبةً لذكرِ سنّةِ الاختلافِ كان من اللّطيفِ أن ينبّه إلى أدبِ الدّاعيةِ في ذلك ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ادعُ النّاس إلى دينِ الله بالأسلوب المناسبِ لمستوياتهم ومداركهم، والخطابُ للرّسول ﷺ ولكلِّ من حمل مشعل الدّعوة من بعده، ولم يذكر مفعولَ "ادعُ" لقصدِ التّعميم، والآيةُ إشارةٌ إلى أنّ الدّعوة إنّما تكونُ إلى دينِ الله لا إلى الأفكارِ والنّحل ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ بالخطابِ الذي يحسُن مع أحوالِهم وينسجمُ مع طبائعهم المختلفةِ، والحكمةُ قيل هي عموم الوحي، وقيّد الموعظة بالحسنةِ لأنّها تنشأُ بحسبِ المدعوّ فيُمكنُ أن تنطويَ على محذورٍ فيُجتنبَ، وقيل: النّاسُ مراتب ثلاث ذوو فهمٍ يُخاطبُون بالحكمةِ؛ وقاصرُون دونهم يخاطبُون بما حسن من المواعظِ؛ ومكابرُون وهم الذينَ قيل فيهم: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وناقشهم بأحسنِ الطّرقِ التي تراها نافعةً لهم تُغيّرُ من سلوكهم؛ فإمّا أن يذعنوا فيُنصَر بهم الإسلام والمسلمون وإلاّ لم يزد شرُّهم، والمجادلةُ بسطُ الحججِ لإثباتِ أمرٍ أو إبطالِه فتكونُ مع المخالِف في أمرٍ ما، والظّاهر أنّ أمثال هذه الآداب قد بادر إليها الرّسُول ﷺ بدافع أخلاقه العظيمة والأمرُ بها محمولٌ على الأمرِ بالثّباتِ عليها، وفي صيغةِ "التي هي أحسن" توجيهٌ للسّموّ إلى أرقى مراتِب التّعامل مع الآخرين لكسبِ أكبرِ قدرٍ منهم لأنّ تفاوت مشارِب النّاسِ في القبولِ يقتضي ذلك، والآيةُ جامعةٌ لأصولِ المحاورةِ وكسبِ الآخر.

ولمّا كانت طبيعةُ الدّاعيةِ حبَّ استجابةِ المدعوّ له بيّنَ بأنّ الإعراض والإقبال الظّاهرين ليسا معيارًا للحُكم على النّاسِ لأنّ أحوال القلوبِ بيد الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وفي دعوتك اعلم أنّ الله أدرى منك بمن ابتعدَ عن نهجِ الله ومن اتّبعَك مهتديًا، وفي هذا أدبٌ رفيعٌ في الدّعوةِ إذ حصر عمل الدّاعي في إيصالِ الرّسالةِ؛ ومن التزم هذا كانت ثمرةُ التزامه راحةُ قلبه وعدم حزنه على من عارضه، وأكّد الكلام ليجدَ في الآذانِ إيقاعًا أقوى، وبدأ بمن ضلَّ لأنّ السّياق فيهِ وذكر المهتدين مقابلةً، ولمّا كان مضمون الآية أشبه بمعاتبةٍ ناسبَ أن يستعمل لفظَ الرّبوبيّة المشعرِ بالتّلطّفِ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ وإن طلبتُم أيّها المؤمنون حقّكم في القصاص ممّن ظلمكم فلا تجاوزوا القدر الذي ظُلمتُم فيه، والآية شاملةٌ لظلمِ المشركِ وغيرِه، واستعمل "إن" دون (إذا) ليُفهمنا بأنّ الأصل عدم المعاقبةِ، على أنّ الأمر بأن لا تزيد المعاقبةِ عن المثلِ للوجوبِ، والإساءةُ الأولى (عوقبتم به) ليست معاقبةً وإنّما شبّهها بها إبعادًا لنيّةِ الإساءةِ ردًّا على الإساءةِ، والآيةُ نزلت في مقتلِ حمزةَ ﷺ يوم أحدٍ؛ فعن أبي هريرة أنّ النّبيّ ﷺ بعد رُؤيته لعمّه حلف: "والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك"، فنزل القرآن وهو واقف في مكانه لم يبرح: ﴿وإن عاقبتم..﴾[١٩]، وإن عدّتِ الآيةُ مكّيةً ففيها

[١٩] رواهُ الحاكم في المستدرك على الصّحيحين من طريق أبي هريرة، ب: الحاء، ر:٢٩٣٦(١٥٧/٣).

إشارةٌ إلى أنّهم سيُمكّنون ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ ولئن صبرتُم على ما أصابكم فهو برٌّ منكم وإحسانٌ يدّخرُه الله لكم، وفي الجملةِ قسمٌ مقدّرٌ؛ ونكتةُ القسمِ والتّوكيد ووضعُ الظّاهرِ "الصّابرين" بدل المضمرِ ترغيبنا في الصّبر، أو "خيرٌ" على التّفضيل بمعنى: الصّبرُ خيرٌ لكم من الانتقامِ. وهو ما أثبتهُ فأوصى بهِ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ واجتهد أيّها الرّسُول ﷺ في الصّبرِ واعلم أنّ ذلك من توفيقِ الله وحدهُ لك، ووجّه الأمر إليهِ تشريفًا وجعل صبرهُ بتوفيقٍ منه تنويهًا بعظمته ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ولا تأسف كثيرًا على طغيان النّاسِ وعتوّهم ولا تتضايق من مكرِهم الذي يلحقُ بشخصك وبدعوتك، وفي هذا تلويحٌ برحمةِ النّبيّ ﷺ العظيمةِ وشفقته إذ كان يغتمُّ كثيرًا لعنادِ قومه، كما تضمّن تسليةً لقلبِه بأنّ الله لا يزالُ معه مؤيّدًا ونصيرًا ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ إنّ الله مع أهل التّقوى المجتنبينَ للمعاصي؛ والذين هم مع تقواهُم إلى جميعِ النّاسِ محسنون، والمعيّةُ معيّةُ نصرٍ وتأييدٍ، وأكّد الجملةَ ليكون لأثرِ ما تضمّنه وقعٌ أشدُّ في القلبِ، وقدّم التّقوى على الإحسان لاشتمالها على التّخلّي والإحسان تحلي؛ وجاءَ بفعلِ "اتّقوا" ماضيًا لإفادةِ حصولِها من قبلُ، وأوردَ الإحسان الذي هو إشارةٌ إلى عمومِ الأخلاق بالجملةِ الاسميّةِ للدّلالة على ثبوتهم عليه.

تمَّ بحمد الله تعالى تفسيرُ سورةِ النّحلِ وتليها سُورةُ الإسراء.

نموذج من أسئلة المسابقات السابقة

حتى يتعرف المشارك على طبيعة وطريقة أسئلة المسابقة، فيما يلي نموذج لبعض أسئلة المسابقات السابقة:

١- قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ تضمنت الآيتان علاجا لوسوسة الشيطان هو:

أ	ذكر الله والاعتصام به وطلب الحماية منه لأنه العليم به وبنزغه.
ب	عدم التمادي مع الوسواس حتى لا يتمكن في القلب.
ج	جميع ما ذكر صحيح.

٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

ما الفرق بين الاستماع والإنصات؟

أ	الاستماع محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت، والإنصات رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره.
ب	الاستماع رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره ، والإنصات محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت
ج	لا يوجد فرق بينهما، وقد جاء طلب الإنصات تأكيدا لطلب الاستماع

٣- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (الْأَنْفَالُ) هي:

أ	الغنائم من الحرب.
ب	ما يتقرب به المسلم إلى الله من النوافل.
ج	قوافل التجارة.

٤- قال تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ كره فريق من المؤمنين الخروج للقتال ببدر بسبب:

أ	عدم استعدادهم للقتال، حيث كانت نيتهم الأولى هي التعرض لعير قريش وليس القتال.
ب	للخوف من العدو حيث كان عدد المسلمين قليلا.
ج	أ و ب صحيحتان .

٥- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الطَّائِفَتَيْنِ) هما:

أ	المسلمين والمشركين.
ب	العير المقبلة من الشام وما تحمله من أموال وبضائع، وقتال النفير المقبل من مكة والنصرة عليهم.
ج	المسلمين واليهود.

٦- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ معنى الاستدراج الوارد في كلمة (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ):

أ	سيرسل الله لهم الآيات والأوبئة والمصائب مما يجعلهم يقنطون من رحمة الله تعالى، فيأخذهم بغتة من حيث لا يشعرون.
ب	سيبسط الله لهم من الرخاء والنعماء ما يجعلهم ينسونه ويستبعدون عقابه، فيأتيهم بأسه من حيث لم يسبق لهم به علم.
ج	سيرسل الله تعالى إليهم السراء والضراء مما يجعلهم ينسونه ويقنطون من رحمته، فيأخذهم العذاب بغتة من حيث لا يشعرون.

٧- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ورد في تفسير (كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا):

أ	كأنك تتعمد إخفاءها على قومك رغم علمك بها من خلال الوحي.
ب	كأنك صاحب معرفة بها وبحث في شأنها ومهتم بها.
ج	كأنك على اطلاع بإمارات قيام الساعة ولكن تخفيها على قومك للاستعداد للامتحان الدنيوي.

٨- قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ مشيئة الله هنا تعني:

أ	إيمان الإنسان أو كفره بيد الله وحده، ولا اختيار للإنسان فيه مطلقا.
ب	يمكن للإنسان أن يتحول إلى غير دينه بنفسه واختياره المطلق دون أن تكون للمشيئة الإلهية أي تدخل في هذا الجانب.
ج	التأدب مع الله سبحانه وتعالى الذي جعل كل شيء بيديه، حتى إيمانهم الذي تمكنوا فيه، فلو شاء الله خذلانهم بالكفر ما منعه مانع.

٩- قالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ "لخاسرون" كانوا يقصدون بها:

أ	التحذير من اتباع شعيب عليه السلام بوقوع الهلاك والخسارة والمتمثلة في أضرار تحصل لهم في الدنيا من جراء غضب آلهتهم عليهم كما يظنون؛ لأن الظاهر أنهم لا يعتقدون البعث.
ب	التحذير من خسارة ما يجنونه من الأموال نتيجة تطفيف المكيال والميزان وغش الناس.
ج	أ و ب صحيحتان.

١٠- قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ في هذه الآية الكريمة يحذر الله المؤمنين من بلاء يصيب:

أ	المسيء بظلمه ومخالفته لأمر الله تعالى.
ب	غير المسيء لسكوته عن المخالفين وعدم إنكاره المسيء مع القدرة على ذلك.
ج	"أ" و "ب" .

١١- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى ....., وكان ذلك في .....

أ	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى اليهود، وكان ذلك في المدينة المنورة.
ب	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في مكة المكرمة.
ج	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في المدينة المنورة.

١٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ المكر هو ....., وتفسير مكر الله سبحانه وتعالى هو .....

أ	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو إلهام نبيه صلى الله عليه وسلم بالدفاع عن نفسه بمخادعة الكفار ورد مكرهم عليهم.
ب	المكر هو محاولة إيقاع الضرر بالقوة، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو رد مكر الكافرين عليهم بإرسال ملائكته لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم.
ج	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو حفظ الله لرسوله وإفشال مكر الكافرين حيث أنجاه الله منهم وحفظه وردد مكرهم عليهم.